

تحت المصباح الأخضر

توفيق الحكيم

توفيق الحكيم

تحت المصباح الأخضر

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

كتب للمؤلف نشرت باللغة العربية

١ ـ محمد ﷺ (سيرة حوارية)	....	١٩٣٦
٢ ـ عودة الروح (رواية)	....	١٩٣٣
٣ ـ أهل الكهف (مسرحية)	....	١٩٣٣
٤ ـ شهرزاد (مسرحية)	....	١٩٣٤
٥ ـ يوميات نائب فى الأرياف (رواية)	....	١٩٣٧
٦ ـ عصفور من الشرق (رواية)	....	١٩٣٨
٧ ـ تحت شمس الفكر (مقالات)	....	١٩٣٨
٨ ـ أشعب (رواية)	....	١٩٣٨
٩ ـ عهد الشيطان (قصص فلسفية)	....	١٩٣٨
١٠ ـ حمارى قال لى (مقالات)	....	١٩٣٨
١١ ـ براكسا أو مشكلة الحكم (مسرحية)	....	١٩٣٩
١٢ ـ راقصة المعبد (روايات قصيرة)	....	١٩٣٩
١٣ ـ نشيد الأنشاد (كما فى التوراة)	....	١٩٤٠
١٤ ـ حمار الحكيم (رواية)	....	١٩٤٠
١٥ ـ سلطان الظلام (قصص سياسية)	....	١٩٤١
١٦ ـ من البرج العاجى (مقالات قصيرة)	....	١٩٤١
١٧ ـ تحت المصباح الأخضر (مقالات)	....	١٩٤٢
١٨ ـ بجماليون (مسرحية)	....	١٩٤٢
١٩ ـ سليمان الحكيم (مسرحية)	....	١٩٤٣
٢٠ ـ زهرة العمر (سيرة ذاتية ـ رسائل)	....	١٩٤٣
٢١ ـ الرباط المقدس (رواية)	....	١٩٤٤

٢٢ ـ شجرة الحكم (صور سياسية) ١٩٤٥
٢٣ ـ الملك أوديب (مسرحية) ١٩٤٩
٢٤ ـ مسرح المجتمع (٢١ مسرحية) ١٩٥٠
٢٥ ـ فن الأدب (مقالات) ١٩٥٢
٢٦ ـ عدالة وفن (قصص) ١٩٥٣
٢٧ ـ أرنى الله (قصص فلسفية) ١٩٥٣
٢٨ ـ عصا الحكيم (خطرات حوارية) ١٩٥٤
٢٩ ـ تأملات فى السياسة (فكر) ١٩٥٤
٣٠ ـ الأيدى الناعمة (مسرحية) ١٩٥٩
٣١ ـ التعادلية (فكر) ١٩٥٥
٣٢ ـ إيزيس (مسرحية) ١٩٥٥
٣٣ ـ الصفقة (مسرحية) ١٩٥٦
٣٤ ـ المسرح المنوع (٢١ مسرحية) ١٩٥٦
٣٥ ـ لعبة الموت (مسرحية) ١٩٥٧
٣٦ ـ أشواك السلام (مسرحية) ١٩٥٧
٣٧ ـ رحلة إلى الغد (مسرحية تنبؤية) ١٩٥٧
٣٨ ـ السلطان الحائر (مسرحية) ١٩٦٠
٣٩ ـ يا طالع الشجرة (مسرحية) ١٩٦٢
٤٠ ـ الطعام لكل فم (مسرحية) ١٩٦٣
٤١ ـ رحلة الربيع والخريف (شعر) ١٩٦٤
٤٢ ـ سجن العمر (سيرة ذاتية) ١٩٦٤
٤٣ ـ شمس النهار (مسرحية) ١٩٦٥

كتب للمؤلف نشرت فى لغة أجنبية

شهر زاد : ترجم ونشر فى باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجوزج لكونت عضو الأكاديمية الفرنسية فى دار نشر (نوفيل أديسيون لاتين) وترجم إلى الإنجليزية فى دار النشر (بيلوت) بلندن ثم فى دار النشر (كروان) بنيويورك فى عام ١٩٤٥ . وبأمريكا دار نشر (ثرى كنتننتزا بريس) واشنطن ١٩٨١ .

عودة الروح : ترجم ونشر بالروسية فى لينتجراد عام ١٩٢٥ وبالفرنسية فى باريس عام ١٩٣٧ فى دار (فاسكيل) للنشر وبالإنجليزية فى واشنطن ١٩٨٤ .

يوميات نائب فى الأرياف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٣٩ (طبعة أولى) وفى عام ١٩٤٢ (طبعة ثانية) وفى عام ١٩٧٤ و١٩٧٨ (طبعة ثالثة ورابعة وخامسة بدار بلون بباريس) وترجم ونشر بالعبرية عام ١٩٤٥ وترجم ونشر باللغة الإنجليزية فى دار (هارفيل) للنشر بلندن عام ١٩٤٧ ــ ترجمة أبا إيبان ــ ترجم إلى الأسبانية فى مدريد عام ١٩٤٨ وترجم ونشر فى السويد عام ١٩٥٥ ، وترجم ونشر بالألمانية عام ١٩٦١ وبالرومانية عام ١٩٦٢ وبالروسية عام ١٩٦١ .

أهل الكهف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٠ بتمهيد تاريخى لجاستون فييت الأستاذ بالكوليج دى فرانس ثم ترجم إلى الإيطالية بروما عام ١٩٤٥ وبميلانو عام ١٩٦٢ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٤٦ .

عصفور من الشرق : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٦ طبعة أولى ،

ونشر طبعة ثانية فى باريس عام ١٩٦٠ .

عدالة وفن : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس بعنوان (مذكرات قضائى شاعر) عام ١٩٦١ .

بجماليون : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

الملك أوديب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ ، وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (ثرى كنتننتزا بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

سليمان الحكيم : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (كنتننتزا بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

نهر الجنون : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

عرف كيف يموت : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

المخرج : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠

بيت النمل : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ . وبالإيطالية فى روما عام ١٩٦٢ .

الزمار : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

براكسا أو مشكلة الحكم : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

السياسة والسلام : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ . وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (ثرى كنتننتز بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

شمس النهار : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

صلاة الملائكة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الطعام لكل فم : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الأيدى الناعمة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

شاعر على القمر : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن ١٩٨١ .

الورطة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الشيطان فى خطر : ترجم بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

بين يوم وليلة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٦٣ .

العش الهادئ : ترجم بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

أريد أن أقتل : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

الساحرة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٣ .

دقت الساعة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

أنشودة الموت : ترجم ونشر بالإنجليزية فى لندن هاينمان عام ١٩٧٣ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٥٣ .

لو عرف الشباب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

الكنز : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

رحلة إلى الغد : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٦٠ . وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (ثرى كنتننتز بريس) بواشنطن عام ١٩٨١ .

الموت والحب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٦٠ .

السلطان الحائر : ترجم ونشر بالإنجليزية لندن هاينمان عام ١٩٧٣

وبالإيطالية فى روما عام ١٩٦٤ .

يا طالع الشجرة : ترجمة دنيس جونسون دافيز ونشر بالإنجليزية فى لندن عام ١٩٦٦ فى دار نشر أكسفورد يونيفرستى بريس (الترجمات الفرنسية عن دار نشر « نوفيل إيديسيون لاتين » باريس) .

مصير صرصار : ترجمة دنيس جونسون دافيز عام ١٩٧٣ .

مع : كل شىء فى مكانه .

السلطان الحائر .

نشيد الموت .

لنفس المترجم عن دار نشر هاينمان ــ لندن .

الشهيد : ترجمة داود بشاى (بالإنجليزية) جمع محمود المنزلاوى تحت عنوان « أدبنا اليوم » مطبوعات الجامعة الأمريكية بالقاهرة ــ ١٩٦٨ .

محمد ﷺ ترجمة د . إبراهيم الموجى ١٩٦٤ (بالإنجليزية) نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . طبعة ثانية مكتبة الآداب ١٩٨٣ .

المرأة التى غلبت الشيطان : ترجمة تويليت إلى الألمانية عام ١٩٧٦ ونشر روتن ولونتبج ببرلين .

عودة الوعى : ترجمة إنجليزية عام ١٩٧٩ لبيلى ويندر ونشر دار ماكملان ــ لندن .

مقدمة الطبعة الثانية

تحت المصباح الأخضر

يصدر هذا الكتاب اليوم أيضاً مع زميله « من البرج العاجى » بعد نحو أربعين سنة من ظهور الطبعة الأولى فى عام ١٩٤٢ . وكان هذا الكتاب قد نفد طول هذه السنوات واختفى ، إلى أن عثر ناشره أخيراً على نسخة له بين أوراقه القديمة صدرت منها هذه الطبعة .

ولقد دهشت وأنا أتصفح هذا الكتاب اليوم . فقد كنت نسيت ما جاء فيه . وخاصة ما كان له صلة بالأدباء والأحداث فى الثلاثينيات ... ومنها على سبيل المثال زواج الملك فاروق فى ٢٤ يناير ١٩٣٨ . وكان وقتذاك فى نحو الثامنة عشرة ، ولم يكن بعد قد التصقت به الشوائب التى نفرت منه شعبه ... كان موضع أمل شعب يرى فى شبابه الغض النقى ما يبشر بمستقبل منشود ... ولذلك فرح به الشعب يوم زفافه ... وألقى أدباء البلد الكبار ومنهم العقاد والمازنى وخليل مطران والجارم شعرهم احتفالا بهذا الزواج فى ذلك الفصل من هذا الكتاب الذى عنوانه « فى جو الأدب القديم » . ولست أدرى لماذا فاتنى أن أنشر ما جاء من شعرهم ونثرهم فى هذه المناسبة ...

ولعل السبب هو عدم احتفاظى بما ألقوه يومئذ ، وربما كان السبب أيضاً تحرجى من الاعتداء على حق تأليفهم ونشره فى كتاب لى ... كذلك لفت نظرى مقالى فى هذا الكتاب عن « أثر المرأة فى أدبائنا المعاصرين » وقولى فيه : « إن سفور المرأة فى مصر قد سبق سفور الأديب » ... لأن جانباً كبيراً من أدبنا الحديث ما زال أدباً حبيساً تفوح منه رائحة الحجرة المغلقة .. ذلك أن حظنا من الصراحة والصدق قليل ... كما فرحت لعثورى فى هذا الكتاب على نص للجاحظ ، كنت أحسب أنه ضاع منى فإذا به موجود هنا فى فصل : « من أدب الجاحظ » علقت عليه بقولى : إن أسلوب الجاحظ فى هذا يغرى بأن نبحث فى كنوز أدبنا العربى القديم عن أساليب فنية يمكن أن تقف إلى جانب ما نسميه اليوم بالأساليب العالمية ...

أما بعد ... فإن تصفحى لهذا الكتاب بعد أربعين سنة قد ذكرنى بفترة الثلاثينيات بأحداثها وأدبائها ، مما قد ينشط ذاكرة من عاصرها ، وينفع الأجيال التى تلتها .. والله الموفق ،،

مارس ١٩٨١

توفيق الحكيم

مقدمة الطبعة الأولى

قال المسيح لتلاميذه : « خذوا كلوا هذا هو جسدى » خذوا اشربوا هذا هو دمى ... الذى يسفك من أجل كثيرين ... » .

أستطيع أنا أيضاً أن أقول لقرائى عن مجلدات كتبى : « خذوا كلوا هذا هو جسدى ! » وعن عصارة فكرى : « خذوا اشربوا هذا هو دمى ... الذى يسفك من أجلكم ! »

* * *

تحضرنى دائماً كلمة لأوسكار وايلد ، ذلك الشاعر الذى كانت حياته مائلة منمقة بالورد والخمر . لقد حابته الطبيعة ، فكان جميلا فى كل شىء : فى منظره وحديثه ومشاعره وكياسته . ذلك الشاعر عاش الجمال أكثر مما أبدعه وصوره . ولقد أدرك ذلك من نفسه فقال : « لقد وضعت كل عبقريتى فى « حياتى » ، ولم أضع فى « كتبى » إلا بعض مواهبى ! »

أستطيع أنا أيضاً أن أقول ... لكن نقيض ذلك : « لقد وضعت كل مواهبى (إن وجدت) فى « كتبى » ، ولم أضع شيئاً » فى « حياتى » !

* * *

هكذا أعبر الوجود الأرضى : نهارى فى برج عاجى ، وليلى تحت مصباح أخضر !

يناير ١٩٤٢ — ت ا

ابن عبد ربه

فى قهوة « الشقيقات الثلاث »

استعرضت فى رأسى البارحة شريطاً ذا ألوان من ذكريات الماضى . أما الألوان فكانت خضرة داكنة لأشجار الزيزفون والكستناء المحيطة بذلك الوكر الجميل المسمى « أورياج » ، ألقته يد الطبيعة فى بطن واد سحيق من وديان « الألب » ، ليذكر البشر بالفردوس المفقود .

ولقد هبطت هذه الجنة فى شهر أغسطس عام ١٩٣٨ أحمل حقيبة واحدة ، فيها « بذلة » واحدة وكتاب واحد : هو « العقد الفريد » بكامل أجزائه .

و لم تكن الحقيبة تتسع لغير هذا الثوب وهذا الكتاب ، و لم يكن شيء أبغض إلى نفسى فى الأسفار من كثرة الحقائب ، فطال ترددى وأنا أتجهز للسفر : أأحمل « بذلة » أخرى وأترك « ابن عبد ربه » ؟ واستقر عزمى آخر الأمر على إيثار « الزميل » أعبر به البحار والجبال ، وأصطحبه إلى بلاد لم تطأها قدمه ، وأريه مناظر لم ترها عينه ، فللأديب على الأديب حق ، وليس من الوفاء حرمان ابن عبد ربه مثل

هذه النزهة . فنبذت الثياب وأخذت الأديب ، وانطلقنا ...

بلغنا جنة « أورياج » ، ونزلنا فندق « الروض » وهو بناء جميل أقيم على بساط من العشب ، قد اضطجعت عليه حور من الفرنسيات يتحدثن فى ظل الأغصان المدلاة إلى ولدان وفتيان ، أو يصغين إلى أنغام موسيقى يحملها النسيم ، تعزفها فرقة فى شبه ميدان وسط المصيف .

وكانت مائدة طعامى بالفندق فى طرف ناء ، فلقد احتل من نزل قبلى الأفاريز المشرفة على المناظر الرائعة ، ولكنى لم أحرم مع ذلك منظر مائدة إلى جوارى جلس إليها فتى وفتاة ، قيل لى إنهما تزوجا حديثا .

لقد كانا زهرتين ناضرتين فى باقة « فندق الروض » . وكنت أنا دائما وحدى ، ليس معى من رفيق غير « ابن عبد ربه » وقد وضعته أمامى فوق المائدة إلى جانب زجاجة « الفيشى » .

نعم ، لم يكن يخطر لى على بال أن هذا الأديب يلازمنى على هذا النحو فى كل مكان . لقد اعتدت ملازمته كما اعتدت من قبل ملازمة عصاى .

فأنا لا أخرج من الفندق فى الصباح ، ولا أعود فى المساء ، ولا أذهب إلى ملهى إلا ومعى « ابن عبد ربه » . حقيقة أن فى جوف هذا الأديب كثيرا من طلى الحديث ، وهو خير أنيس وجليس فى مثل وحدتى وعزلتى .

ولكن ... أما كتب لى أن أظفر بجليس أجمل منه سحنة وأعذب منه صوتا ؟ لقد كنت أتأمل من طرف خفى هذين الزوجين السعيدين ، فيخيل إلى أنى أرى منهما أشياء . إنهما لا يتحادثان كثيرا ، وكل منهما يأكل وهو مطرق ، ولقد لحظت أن الزوج ما يكاد يفرغ من أمر طعامه حتى يترك امرأته ويختفى اختفاءة لا يظهر بعدها إلا على مائدة الوجبة التالية . وكان الذى يشغل فكرى وقتئذ البحث عن « قهوة » هادئة أجعلها مقرا لى وللأديب الذى معى وللورق الذى فى جيبى . فأنا لا مطمع لى فى رياضة شاقة كتسلق الجبال ، ولا رياضة هادئة كلعب « التنيس » . وليس فى الناحية جدول قريب أصطاد منه السمك ، وهى رياضتى الوحيدة التى أحذقها . أستغفر الله !.. (أخشى أن يسمع طه حسين كلمة « أحذقها » وهو الشاهد العدل على مبلغ حذقى إياها !)[١] . وعثرت آخر الأمر عند أقدام أشجار باسقة قد تهدلت أغصانها كجدائل الشعر الكثيف ، على « قهوة » صغيرة فى شبه كوخ من خشب نثرت حوله المقاعد والموائد . فقلت فى نفسى : ها هنا مكانى . فاتخذت مقعداً فوق العشب ، والتفت أطلب الساقى يحضر إلى فنجانا من الشاى . فاذا أنا أمام ساقية كالبدر . وإذا أخرى على باب الكوخ كالشمس . وإذا ثالثة

---

(١) راجع كتاب « القصر المسحور » .

وهى الصغرى تخطر فى خفة الغزال بين الموائد ، ناثرة قطرات اللطف والظرف ، فى صورة ابتسامات ساحرات ، ذات اليمين وذات الشمال ، إذا قلت إنى فى حياتى لم أر أظرف من هذه الفتاة ما كذبت ، وإذا أقسمت أن هذه الفتاة ما خلقت إلا لتتلقى نظرات الإعجاب من الناس لما حنثت . الدليل تلك الأعين التى ترمقها من كل جانب ، وتلك الأفواه التى تناديها من كل مائدة . كان اسمها « فرانسواز » .

وفرغت من دهشى قليلا فأجلست ابن عبد ربه على مقعد خال بجوارى ، وأردت أن أشير إلى الفتاة لأطلب فنجان الشاى ، وإذا غيرى يسبقنى :

ـــ فرانسواز ! كأسا من البيرة .

فانتظرت لحظة ، ثم هممت بندائها ، وإذا صوت آخر :

ـــ فرانسواز ! كوباً من شراب البرتقال .

فسكت مرغما . ثم عاودنى الأمل فرفعت رأسى إليها وإذا صيحة :

ـــ فرانسواز ! فرانسواز !

فالتفت فإذا ذلك الزوج الشاب الذى يهجر زوجته فى الفندق بعد كل طعام ، قد جاء فى شبه ركض وجلس إلى مائدة قرب مكان الفتاة ، وطفق يحدثها حديثا ازدحم به فمه ، وهى تضحك أحيانا ضحكا رقيقا يتمايل له غصنها الرشيق . وأشرقت السعادة فى وجه الشاب . وإذا صفاؤه قد عكره صوت فتيان آتين بملابس « التنيس »

يصيحون قبل أن يجلسوا :

ــ فرانسواز ! فرانسواز !

فالتفتت إليهم الفتاة وابتسمت ، ثم استأذنت محدثها وانطلقت إليهم . فاستقبلوها فى شبه هتاف وظلوا لحظة يتضاحكون . هؤلاء فيما يخيل إلى فتيان من طلبة الجامعات ، فإن هذرهم وضجيجهم وما يبدو من سنهم ينم عن ذلك . وكان أكبرهم سناً فتى معتدل القامة جميل المنظر فى سروال « التنيس » الأبيض وقميصه وسواعده العارية . وكان هو أكثرهم اهتماما بأمر الفتاة . طفقت أنظر إلى كل هذا ، وذكرت أن ذقنى لم يحلق منذ ثلاثة أيام ، وتلك أيضا عادة من عاداتى ، فأنا لا أفكر فى ذقنى وهندامى إلا مصادفة . ثم ذكرت قلنسوتى « البيرية » التى تهبط إلى أذنى كأنها « لبدة » وعصاى الغليظة وكتابى الضخم بغلافه السميك القديم ، كأنه سفر من أسفار السحر والتنجيم . فأدركت أن منظرى لن يؤهلنى إلى طلب فنجان الشاى فى هذه القهوة ! أأنهض إلى غيرها ؟ هذا مستحيل . إن هذا الجو الشعرى الجميل الذى يكتنف هذه القهوة هو فى ذاته متعة دونها كل متعة . وطال جلوسى ، وطالت مشاهدتى ، ومر الوقت سريعا دون أن أشعر به ، وقام أناس ، وقعد أناس ، وأنا فى مكانى لا يشعر بى أحد ، ولا أطلب شيئا إلى أحد . لقد خجلت أن أسترعى التفات الشقيقات الثلاث ما دامت أنظارهن لا تريد أن تقع على مثلى !

وجعلت أسائل نفسي فى نبرة مريرة ، وروح كسيرة :

— ماذا يمنعني من أن أعيش كما يعيش هؤلاء الأحياء ؟ ما أحسبنى قد بلغت سن اليأس ، وأنا الآن بالمصيف فى شهر راحة . ما يمنعنى من حلق ذقنى كل صباح وترتيب شعرى وتعريضه للشمس والهواء ، وارتداء مثل هذا السروال الأبيض الجميل والقميص ذى السواعد العارية ؟ لم أتلق جوابا عن سؤالى ، ولكن نظرة منى وقعت على صديقى « ابن عبد ربه » الموضوع إلى جانبى أدركت معها فى الحال من المسئول عن كل ما صرت إليه !

نعم ، وأسفاه ، نعم . ووددت لو أنقض عليه فأقطعه تقطيعا وأمزقه تمزيقا . ولكنى اكتفيت بحمله بين يدى فى سخط شديد ، كمن يحمل كتابه الذى سطرت فيه لعنته وقدره المحتوم .

وعند ذلك حانت من الفتاة التفاتة إلى ، وفطنت إلى وجودى ، فأسرعت إلى تقول فى ابتسام واعتذار :

— نسيتك يا سيدى .

فأجبتها فى ابتسام وتسامح :

— لا بأس ، إنك على كل حال لم تنسى شيئا ذا خطر .

وأحضرت إلى ما طلبت . ولم نتبادل كلاما أكثر من ذلك . ولكنى سعدت به . فنحن معشر الأدباء المساكين نرضى بالقليل . ويكفى لإسعادنا وإلهامنا أتفه الأشياء .

* * *

كثر اختلافى إلى هذه القهوة . وكنت فى كل مرة أرى عين الأشخاص يلعبون عين الأدوار .

فالطالب فى لباس « التنيس » ينادى « فرانسواز » فى كل لحظة ، ولا يشبع من الحديث معها ، ولا يضن بطلب مشروب بعد مشروب ، استبقاء للساقية الجميلة إلى جواره . ولقد سمعته ذات مرة وقد انفلتت من فمه هذه الكلمة :

ـــ أوه ! لقد خربت وأفلست ، وأضعت كل نقودى فى هذه القهوة !

ويلبث فى سروره وضحكه وهذره ساعة ثم يمضى إلى ملعبه ، مطوحاً « بمضربه » فى الهواء فرحاً سعيدا .

ويأتى الزوج الشاب ، وقد ترك زوجته فى الفندق وحيدة متذمرة تعسة مرتابة . فينادى : « فرانسواز » . ويطلب السعادة هو أيضا ساعة فى عينيها الباسمتين غير مبال بخطر فقد زوجته فى هذا السبيل .

تأملت كل هذا لحظة ثم قلت لنفسى :

ـــ هذان شابان جميلان . ومع ذلك فقد أضاعا شيئا فى سبيل لحظة هناء إلى جوار هذه الفتاة . ماذا أعطى أنا من أجل لحظة تحادثنى فيها هذه الفتاة ؟ نعم ، هنا كل سعادتى ومطمعى : أن أسترعى اهتمامها لحظة وأن تقبل على تحادثنى حديث المشغوف بمحادثتى !

لكن .. هل هذا ممكن الحدوث وقد ابتليت بصحبة هذا الزميل

المنحوس ؟ وانكببت على ورق الذى كنت قد نشرته . وفتحت صدر ابن عبد ربه أمامى ووضعت فيه همى . وكأن القدر شاء مداعبتى أو أراد متعمدا أن يكشف لى قليلا عن جوهر نفسى المحجوب عن عينى ، فأحدث المعجزة . وإذا الفتاة تدنو منى مبتسمة متعجبة وتقف لحظة ترمق سطور ابن عبد ربه وهى صامته ، وفطنت إلى قربها ، فاضطرب قلبى ورفعت رأسى ، فابتدرتنى قائلة فى همس :

— أهذه كتابة صينية ؟!

فضحكت وقلت :

— بل عربية .

— ما أعجبها ! أتستطيع أن تقرأ هذا النبش فى سهولة ؟

— بالطبع . وأكتبه أيضا .

— وتكتبه ؟

— نعم . انظرى .

ومضيت أكتب أمامها . وهى دهشة مسرورة . وجعلت تستفسرنى كثيرا من معانى الكتاب وقاطعها النداء من كل جانب ، فكانت تذهب لتلبى ثم تعود إلى تحادثنى مغتبطة ، وقد تطرق الحديث إلى مواضيع كثيرة . وقد أدركت من حديثى أن الكتابة صناعتى ، فأقبلت تعرض على ألوانا من حياتها تصلح قصصا . وبدا على السرور أول الأمر ، وبدأت أحترم ابن عبد ربه ، فبفضله تم كل هذا ، ولكن

ما كدت أتردد على القهوة مرة أخرى وتقبل على الفتاة تحادثني ذلك الحديث الطويل في مختلف الشئون ، حتى أحسست أن كل شيء قد تغير في نفسي ؛ فالأشجار ليست الأشجار ، والجنة ليست الجنة ، ووجهها لم يعد فيه السحر القديم ، والجو الشعرى قد ارتفع عن القهوة . ذهب السحر وتهتكت أستار الأسرار . وما أنا والفتاة الآن إلا صديقان ثرثاران !

وشعرت عندئذ أن لا شيء عاد يربطني بالقهوة ووددت لو أتركها إلى غيرها حتى أتفرغ للعمل ، وأتم الفصول الأولى التي بدأتها مدفوعا بتلك القوة الهائلة من لحظة سعادة خفيفة مرت . عند ذاك فهمت أن السعادة التي تلزم لنا نحن الفنانين ، لنقوم بالأعمال الكبار ينبغي أن تكون بمقدار !! مقدار صغير ثمين مثل « الراديوم » . فإذا انغمرنا في حوض من هذه المادة السحرية فإنها تنقلب في نظرنا ماء قراحا لا فعل له ولا أثر .

وتأبطت « ابن عبد ربه » أخيراً ، وانصرفت به وقد ... انتصر !

روميو وجولييت

عند الفردوسى

عاش هذان الاسمان الجميلان : « روميو وجولييت » أجيالا بعد أجيال يلقيان فى الأذهان أبرز صورة للحب الجميل العنيف . وقد ينسى الناس كثيرا من التفاصيل فى قصة « شكسبير » . وقد لا تعى ذاكرتهم أغلب المواقف . ولكن هنالك شيئين لا ينساهما الناس : الأول أن هذا الحب نشأ بين زهرتى بيتين فرقت بينهما العداوة المتأصلة والأحقاد الدفينة ، فكان على الحب وحده أن يجاهد جهاد المستميت على شفا تلك الهوة الملتهبة التى تفصل بين قلبين رقيقين لم يخلقا للبغضاء ، وإنما خلقا ليتآلفا ويبتسما وينشرا على الأرض الصفاء ! والثانى : تلك الليلة العجيبة الخالدة فى تاريخ الغرام البشرى ، ليلة اللقاء فى الشرفة ، ليلة أن تسلق العاشق الجميل شرفة معشوقته الجميلة ، ليختلس من القدر القاسى لحظة هناء . تلك الليلة الذهبية التى تواطأ فيها القمر مع النجوم بمعاونة الأشجار والنسيم ، على إحاطة العاشقين بإطار بهيج من أضواء وهمسات وتنهدات ، هى خير ما تقدمه الطبيعة من هدية إلى محبين فى ساعة النجوى واللقاء .

إذا رجعنا إلى شاهنامة الفردوسى ، وقرأنا فيها قصة « دستان وروذابة » وهى سابقة على قصة « روميو وجولييت » بنحو خمسة قرون ، لوجدنا هذين الموقفين بالذات . ولندع الفردوسى يتكلم بلسان مترجمه « البندارى » .. قال :

« فلما جن الليل جاء دستان ووقف عند أصل القصر . وأشرفت عليه روذابة من بعض شرفاته . فسدلت « شعورها » ، وأشارت إليه أن يتعلق بها ويصعد . فامتنع « دستان » من ذلك « ولثم » تلك الضفائر الممسكة ، وعلق « رمحه » بالحائط وصعد فى أسرع من رجع الطرف . فاجتمعت الشمس والقمر . وطال بينهما الحديث والسمر ، وباتا يتشاكيان حر الاشتياق ، ويتفاوضان ذكر الفراق فى مجلس فرش بالديباج والحرير ، ونضد بالمسك والعبير . فلما نفحت نسائم السحر ، وتشعشعت تباشير الصبح ، وغردت سواجع الأطيار فى عذبات الغصون والأشجار ، قام دستان فودعها ، فتعانقا وتحالفا على ألا يقرب كل واحد منهما غير صاحبه حتى يجمع الله بينهما « بالزواج » .

فافترقا على ذلك . وجاء دستان إلى مخيمه . فلما طلعت الشمس جمع الوزراء والأمراء وشاورهم ، وأعلمهم بأنه يريد أن يتزوج بروذابة الجميلة ابنة « مهراب » . فصاحوا :

— ابنة مهراب ، وهى من أولاد الملك « الضحاك » وأنت دستان

ابن سام ، سليل الملك منوجهر ؟!

— وماذا فى ذلك ؟

— لا يخفى عليك ما بين البيتين من العداوة والشحناء . ولا يرضى أبوك سام ولا الملك منوجهر ، بأن يجرى بينكما امتزاج واتشاج . وإن سمعا بميلك هذا احتدما غيظا ، وصعب استرضاؤهما ، وتعذر استعطافهما .

فلما سمع دستان ذلك أطرق محزونا مكتئبا .

ثم أقبل عليهم وقال :

— لا بد من إعمال الفكر فى ذلك ...

فأشاروا عليه آخر الأمر بأن يكتب إلى أبيه ويتضرع إليه ويعرض عليه ما بلى به من العشق ، فلعله يرق قلبه ويتشفع إلى الملك .

فاستصوب الرأى . وأحضر الكاتب وأمره أن يبعث إلى أبيه برسالة يفصل فيها الأمر . فلما وصل الرسول بالكتاب إلى أبيه ، وفض الأب ختامه وقرأه أخذه الوجوم وتناوشته الهموم ، ورأى أن ما خامر قلب ابنه من حب روذابة أمر لا يرتضيه الملك منوجهر . فأحضر المنجمين والحكماء ، وشاورهم فيما هجس فى ضمير ولده ، فأخبروه أن الله أجرى قلم التقدير فى اللوح المحفوظ باقتران السعدين واجتماع النيرين بتواصل البيتين ، وأنه يولد بينهما ولد يملأ الدنيا مهابة وقهرا، وشهامة وفخرا . فتمشت نشوة الفرح فى رأس

سام ، فدعا برسول ولده دستان ، وأمره بالرجوع إليه يبشره بقبوله السعى فى قضاء حاجته وإنجاح مطلبه . ونهض سام من فوره لاستئذان الملك فى إنشاء هذه المصاهرة . وبلغت مسامع الملك منوجهر أن ابن سام يريد الاتصال بينت مهراب ، وأن سام موافق على ذلك ، ناهض إلى حضرته لاستئذانه ، فاحتدم غيظا واستشاط غضبا . وجمع وزراءه وقواده وفاوضهم فى ذلك وهو يقول :

ــ أخاف أن يكون تحت هذا الرماد جمر يثور منه دخان ، إذا حصل تزاوج بين ابن سام وبنت مهراب ، وهى شعبة من الدوحة الضحاكية . والحزم ألا يفتح لهما طريق إلى هذا . وألا يمكن سام من السؤال فى ذلك المعنى .

وقدم سام فاستقبله الملك على العادة المعهودة ، وتلقاه بالإعظام والإكرام . وما كاد سام يفتح فاه ليستأذن الملك فى الاتصال ببنت مهراب ، حتى أسرع الملك قائلا له :

ــ إنا تدبرنا فى أمر مهراب ، وأنه شعبة من تلك الجرثومة الخبيثة ، ولا بد من قلعها واستئصالها . وقد اقتضت آراؤنا أن تنهض أنت لكفاية أمره واستئصالها . وقد اقتضت آراؤنا أن تنهض أنت لكفاية أمره واستصفاء مملكته ، واستضافتها إلى ما فى يدك من ممالك الهند !

فلما رأى سام أن الملك قد سد عليه طريق ملتمسه كف لسان سؤاله ، وسارع إلى الانقياد ، فقبل الأرض وخرج متوجها نحو ممالك

الهند .

وتناهى الخبر بذلك إلى دستان ومهراب . فقامت القيامة على مهراب وأصحابه ، ويئسوا من الحياة . وضاقت الأرض على دستان ، لأنه كان السبب فى إيقاد نار الفتنة ، وتوقد من الغيظ متنمرا كالثعبان الصائل . وصاح :

— إن مهراب نسيبى ، وهو معتضد بقوة بأسى وشدة مراسى ، ولا يقدر العقاب أن يطير على ساحة مملكته ، ما دام هذا الرأس على جسدى ، واستقر هذا الصمصام فى يدى !

ثم جاء الخبر بمقدم أبيه فخرج لاستقباله . وما خلا أحدهما إلى الآخر ، حتى أخذ دستان يبث إليه شكواه ويذكره بمعاهدته إياه على مواتاته فيما يطلب ، إلى أن قال له فى زفرة الموجع :

— لكأنك الآن يا أبى لم تقدم إلا على ما يوغر صدرى ويوحش قلبى ويفجع بروحى شخصى ، لما أنت عليه مصمم من محاربة مهراب وتخريب دياره وانتهاب خزائنه . فإن كان الأمر هكذا ، فهأنا ذا واقف بين يديك مسلم زمام قيادى إليك : فخذ رأسى أولا ثم خض فى محاربة مهراب بعد ذلك !

فرق عندئذ قلب الوالد . وطفق يفكر فى وسيلة تخرجه من هذا الموقف . فأطرق مليا ، ثم رفع رأسه وقال :

— ليس أمامى غير طريق واحد : أن أنفذك يا بنى إلى خدمة

الملك ، وأكتب إليه كتابا أستعطفه وأسأله الأنعام عليك بما يفضى إلى إنجاح مآربك وقضاء حوائجك .

* * *

وجاء الخبر إلى الملك منوجهر بوصول دستان فاستقبله أعيان القواد وأمراء الأجناد . ولما قرب من السرادق رُفعت دونه الستور حتى دخل . فلما وقعت عينه على الملك قبل الأرض ووضع جبهته على التراب وبقى كذلك ساعة ، فأشار الملك إلى من رفع رأسه من الأرض وقربه إلى التخت ، فلاطفه فى خطابه وسأله عن حاله وما تحمله من وعثاء السفر فى حلة وترحاله فقال دستان : كل تعب يفضى إلى لقائك فهو راحة وسرور ، وكل عناء يقع فى الطريق إليك فهو مسرة وحبور .

ولبث دستان أياما فى قصر الملك وقد سر به الملك وقربه إليه وأنزله من نفسه منزلة رفيعة . وقرأ الكتاب الذى جاء به . فتفكر فى الأمر . وطلب العلماء والحكماء ومن تبحر من المنجمين وأمرهم بالبحث فى طالع دستان ، وعما يؤول إليه حاله فى هذه المصاهرة . فلبثوا ثلاثة أيام يعملون دقائق النظر وثواقب الفكر فى تطلب علم ما وارته ستور الغيب . ثم جاءوا إلى باب منوجهر وقالوا :

— أيها الملك : إنه قد ظهر لنا أن سيولد بين ابن سام وبنت مهراب ولد كبير القدر ، رحب الصدر ، يشد وسطه فى هذه الممالك

لخدمة الأملاك ويرفع قواعد المجد على ذرى الأفلاك !

فلما سمع الملك ذلك فرح وأمر بإحضار دستان فبشره وأثنى عليه وخلع عليه خلعة تليق بمثله ، وأمر أن يكتب إلى سام بأن الملك قد قر عينا بطلعة دستان وانشرح صدره بمحاسن آدابه ، وأنه تقدم بإنجاح مطالبه وقضاء مآربه .

* * *

وانصرف دستان من حضرة الملك منوجهر كالطير فى الهواء ، فلم يشعر به أحد حتى طلع على أبيه ، فوثب إليه وعانقه . ثم أعدا العدة للنهوض إلى لقاء مهراب ، فقد آن الأوان لاجتماع القمرين واقتران السعدين . فركبا حتى انتهيا إلى كابل فرأيا الأرض تطن بخفق الطبول ونقرات السرور . واستقبلهما أهل البلد راكبين ، قد ضمخوا أعراف الخيول بالمسك والعنبر . وخرج مهراب لاستقبالهما ، وأمر بشد الكوسات والطبول على مناكب الفيول ، وركوب العساكر فى موشعات الملابس ، ونشر عذبات الرايات والأعلام ، وخروج القيان والمغانى بالمزاهر والمعازف .

وسار دستان فى هذا الجمع كالهلال ليلة العيد يشار إليه بالأصابع ويرمى نحوه بالنواظر ، حتى انتهوا إلى القصر فنزلوا ورفعت دونهم الأستار ودخلوا الإيوان المذهب والمجلس المنجد .

فقال سام :

— ألم يأن أن تقر ألحاظنا بالخريدة النادرة والعقلية الرائعة ؟

فرفع الستر . وإذا هو يرى روذابة فوق المنصة متجلية كالشمس البازغة . فبهت لرونق جمالها . وطلب مهراب فتقدم وعقدوا العقد . ثم أخذوا بيد دستان وأقعدوه إلى جانب صاحبته ، ونثروا على سريرهما المنجد أطباق الياقوت والزبرجد . وكانت تلك الليلة من الليالى الزهر ومن حسنات الدهر :

فيـا ليلــة فيها السمـــاء تبرجت
سروراً كخود فرعهـا فاحـم جثـل .
وقـد جـلت الإكليـل جبهتها لنـــا
بكـف خضيب والهلال لها حجـل
وقد أشعلت زهـر النجـوم أمامهـا
مشاعـل منها أشرق التـل والسهـل
زفاف به السعـدان فى فـلك الـعلى
قد اجتمعا ، لا فض بينهما الشمـل

الخاتم السحرى

البارحة تحت مصباحى الأخضر فتحت كتاباً وردت فيه هذه الأسطورة من أساطير الشرق القديمة :

« ... فى سالف الأزمان عاش رجل ألقت إليه السماء بخاتم نادر الوجود ، خاتم من حجر كريم تنبثق منه أشعة عجيبة مختلفة الألوان ، خاتم سحرى من حمله وآمن به فقد رضى عنه الله ورضيت عنه الناس . فحرص عليه الرجل ووضعه فى أصبعه لا ينزعه منها قط . ورأى أن يحفظه فى بيته يتوارثه خير الخلف عن خير السلف . فأوصى أن يؤول هذا الخاتم من بعده لأحب أولاده إليه ، وأمر أن يورثه هذا الولد لأعز أبنائه عليه . دون أن يكون للسن فضل ولا للأكبر من الأبناء حق . وأن يعطى الخاتم الأحب من الأولاد دائما ، ويكفل لمن حازه حق زعامة البيت .

وسارت الأحوال على هذا المنوال أجيالا بعد أجيال ، وانتقل الخاتم من ابن إلى ابن ، حتى وقع آخر الأمر فى يد رجل له ثلاثة أبناء كلهم حبيب إلى قلبه عين الحب ، وكلهم قد أنزله من نفسه عين المنزلة . وكان كلما خلا إلى أحدهم فى غيبة صاحبه خيل إليه أنه أفضلهم عنده . فحمله الضعف على أن همس فى أذن كل من الثلاثة على انفراد

بأن الخاتم له دون سواه . وحضرته المنية آخر الأمر ، فوقع فى حيرة ، وفكر طويلا وتأمل كثيراً ، ماذا يصنع ؟ وهدته السماء إلى فكرة سطعت كالنور الإلهى . فاستدعى سراً صائغاً من مهرة الصياغ ، وأمره أن يصنع له خاتمين على مثال خاتمه . وأوصاه أن لا يدخر مالا ولا جهداً فى سبيل إتقان التقليد . وصدع الصائغ بالأمر ، ومضى بالخاتم وغبر ملياً ثم عاد بالخواتم الثلاثة فوضعها أمام الأب . فنظر إليها الأب فأخذه العجب : إنه لم يستطع أن يخرج الأصيل من الدخيل ، ولم يعد يميز الصادق من الزائف . ففرح وطلب أولاده .

واجتمع بكل واحد منهم منفرداً وأعطاه الخاتم ، ودعا له بالبركة . ثم أسلم الروح ... ووارى الأبناء أباهم فى التراب . وما كادوا يفرغون من أمره حتى أبرز كل خاتمه ، وادعى أنه صاحب الحق فى زعامة البيت . ووقع بينهم الخلاف ، ودب الشجار وتفاقم النزاع . والكل شديد الاقتناع أن خاتمه هو الصحيح ، ولكن من ذا يستطيع تمييز الصحيح من الباطل ؟ وذهب الجميع إلى القاضى . وهنالك صاح كل من الأبناء طالبا الحكم له . وأقسم أنه قد تسلم الخاتم من يد ذلك الوالد الكريم . وأنه هو دون أخويه حامل الخاتم الصحيح .

فحار القاضى ، ولم يدر ماذا يصنع ، ولا كيف يقضى فى هذا الأمر العسير ، فصاح :

— أحضروا أمامى أباكم أسأله .

فقالوا :

— إنه ميت فى التراب كيف نستطيع إحضاره ؟

فقال القاضى :

— وأنا كيف أستطيع أن أحكم بينكم ؟ أتحسبوننى قديرا على حل الألغاز ؟ أم تظنون أن فى مقدورى استنطاق الخاتم الحقيقى من بين الثلاثة ؟!.

وأطرق القاضى قليلا ثم رفع رأسه فجأة وقال :

— لكن اسمعوا . ألم يقل قائل إن الخاتم الحقيقى له فعل سحرى يكفل لمن حمله رضا الله والناس ؟ ها هنا مفتاح القضية ، فالخواتم الكاذبة لن يكون لها مثل هذا الأثر . فمن منكم قد امتاز عن الآخرين برضا الله والناس ؟! هلموا . تكلموا ... انطقوا ... ما بالكم قد خرستم !. يظهر أنكم أنتم الثلاثة خادعون مخدوعون ، وأن خواتمكم الثلاثة كلها زائفة . وأن الخاتم الحقيقى قد فقد . فإذا أردتم منى نصيحة أسديها إليكم بدل الحكم بينكم ، فإنى أقول لكم : « خذوا الأمور على وضعها القائم ، وليعتقد كل منكم أن خاتمه هو الصحيح ، وليجهد فى إظهار فعله السحرى . وذلك لن يكون إلا بالعمل على إرضاء الله والناس . فإذا مضى كل منكم فى هذا السبيل ونافس كل منكم الآخر فى اكتساب رضا الله والناس ، بالخلق الطيب والعدالة السامية والنزاهة الطاهرة والمحبة الفياضة والتسامح الكريم والسلوك

القويم والأعمال الصالحة التى تغمر الناس أجمعين بالخير العميم ، إذا فعل كل منكم هذا وغرس بذوره فى نفوس تابعيه وذويه ، وشعر أن خاتمه قد أحدث الأثر المسحور ، فليتقدم إلى هذه المحكمة فإن كنت بعد على قيد الحياة حكمت وإلا وجدتم غيرى فى مكانى أكثر منى حكمة وأغزر علماً يتولى النطق بالحكم ... » .

فرغت من قراءة هذه الأسطورة وأنا أقول فى نفسى : ما أعمقها حكمة توضع تحت أنظار أحزاب متطاحنة . وما أحوج الأمم إلى قاض يسدى مثل هذه النصيحة لحملة مثل هذه الخواتم ، ويعلن إليهم فى صراحة أن اتهامات التزييف التى يلقى بها أحدهم فى وجه الآخرين هى لغو من الكلام . فكل خاتم يحمل جوهره الحقيقى السحرى فى العمل الذى يرضى الله والناس . ها هنا ميدان التنافس الحقيقى الذى ينبغى أن تعرض نتائجه على محكمة الرأى العام .

شهر زاد وموغمارتر

ــ أنت تعرف عادتى ورغبتى يا جان : حساء البصل « سوب ألونيون » ونبيذاً أبيض !

ــ وقلماً وورقاً ؟

ــ القلم والورق معى .

فأحضر الساقى خرقة جعل يمسح بها خوانًا أمامى من الخشب ، نقش عليه بمطواة بعض العابثين صورة امرأة عارية تتمطى كعاريات « موديجليانى » ثم نظر إلى وابتسم :

ــ أما زلت تكتب الشعر على طريقة ماكس جاكوب ؟!

قالها فى صوت غامض غريب . فصحت به للفور :

ــ قلت لك يا جان ذاك عهد مضى . عهد مونبارناس وقهوة « الدوم » . أما الآن وأنا أختم عام ١٩٢٥ فى موغمارتر فأنا إنسان آخر أصنع شيئاً آخر .

ــ تضع « شهر زاد » . هل فرغت منها ؟

ــ أوشكت أن أنتهى من طور التفكير .

ولا ينقصنى البدء فى التنفيذ غير موسيقى من طراز « سترافنسكى » . لقد عرفت هنا موسيقياً مجرياً من نوعه . وأنضر

قلباً منه . قد ينفعنى . لكن المعضلة ليست هنا ...

وأمسكت عن الكلام . إذ مثل لفكرى فجأة ختام « شهر زاد » الذى خرت فى تصوره منذ أيام . ورأى جان شرود ذهنى فانصرف عنى تأدباً وتناول قبعتى « الفنية » السوداء ومعطفى الطويل الأسود يقطران بماء المطر فعلقهما على مشجب بجوار النار وعاد يقول :

ـــ أتعرف جورج أوريك ؟ كان يجلس إلى هذا الخوان . أما الآن فهو موسيقى معروف . أنت كذلك من يدرى مصيرك غدا ؟.

فضحكت على الرغم منى :

ـــ أشكرك يا جان . مصيرى مظلم . لو عرفت الحقيقة . حتى مونمارتر بكل أسرارها وسحرها لم تستطع شيئاً معى . إنها جعلتنى أفكر وأبحث كما ترى . لكن ما النتيجة ؟ إن جورج أوريك قد وصل لأنه بنى على ماض قريب . أما أنا فليس لى ماض قريب . أمامى أن أنفذ إذن إلى ذلك الماضى السحيق الذى كادت تدرس معالمه تحت رمال الزمن ...

فهز جان رأسه . ثم رفع يده إلى لفافة تبغ يحملها فوق أذنه اليسرى فأشعلها وطفق يدخن . ثم تناول مكنسة وأخذ يكنس القهـوة استقبالا للصباح الذى يبزغ عما قليل . ولم يكن بالمكان وقتئذ غيرى وغير رجلين من اللصوص أو الطغام أو الفنانين العظام !!! كانا واقفين أمام « بار » الزنك يشربان قهوة سوداء ويأكلان خبزاً صغيراً . وفى أحد

الأركان امرأة من مومسات الحى أو بنات الهوى المتجولات المختلفات إلى ذلك المكان ممن كنت أسميهن « قطط المحل » ... جالسة فى هيئة من الكلال وسوء الحال تستثير الإشفاق . وهى بين آن وآن تتأمل وجهها الباهت تحت الطلاء فى مرآة بالحائط كتب عليها بحروف من الجير : « قهوة سيرانو » .

أقبل جان بالحساء والنبيذ فلم أتحرك و لم أكف عن التأمل فنظر إلى الخادم قليلا ثم قال :

ـــ أرى الوحي لا ينزل عليك إلا آخر الليل !

ـــ صدقت يا جان . هو لا ينزل إلا بنزول عربات الرش تدوى بها الشوارع الهادئة وأصوات قطرات الخضر المبكرة توقظ مخلوقات الله الوادعة !

فضحك الرجل . وطويت ورقى وألقيت بقلمى ودسست ملعقتى فى الحساء ورفعتها وقد علقت بها خيوط الجبن الممزوج بالبصل والتهمت ثم التفت إلى الخادم :

ـــ أتدرى أين كنت الليلة يا جان ؟

فأجاب جان من فوره فى صوت العارف الواثق :

ـــ فى حانة « الأرنب الخفيف » :

ـــ كلا . بل كنت هنا ...

وأشرت إلى مقصف « الفأر الميت » على مقربة من القهوة . ذلك

المرقص المشهور الكثير النفقة . فبدا الخبث فى عينى جان و شفتيه وقال فى صوت المرتاب :- .

ـــ وأين لك بالنقود ؟

ـــ سبحان الله يا جان ! أين لى بالنقود ؟ من تحسبنى أيها المخلوق ؟!

فضحك جان وقال :

ـــ أحسبك رجل فن ، وبين الفن والمال عداوة قديمة !

فأطرقت فى إذعان وتسليم وقلت فى تنهد :

ـــ هذا صحيح ... ومتى تزول هذه العداوة القديمة يا جان ؟ ومتى تعقد الهدنة على الأقل ؟ إن المال حلو يا جان . إن النقود جميلة . إن مظاهر الغنى والبذخ والإنفاق والسعه هناك فى « الفأر الميت » لشىء يجدد الحياة ويطيل العمر ! نعم ... كنت هناك الليلة . اطمئن يا جان : أصدقاء موسرون هم الذين تفضلوا بدعوتى فلبيت مرغماً . وتكلفوا من أجلى خمسمائة من الفرنكات ثمن زجاجتين من الشمبانيا الفاخرة . ولا يغيب عن فطنتك يا جان أن هذا مكان يؤمه أهل الطبقة العليا . فلا ترى حولك إلا أردية السهرة وأقمصة منشاة وأربطة للعنق بيضاء . ولكننى أخذت على غرة فلم أستعد للسهرة ودخلت على أولئك القوم وأنا على ما ترى من هيئة « نظيفة » !! دون أن أحلق ذقنى على الأقل ... ودون أن أنظم حتى شعرى المبعثر الأشعث فى

سبيل « أبولون » !!

فنظر إلى الخادم من رأسى إلى أخمص قدمى متفحصا ثم ابتسم لمنظرى وقال :

— وأى بأس ؟ أنت من فصيلة الشعراء !..

— ماذا تقول ؟

— مباح لكم كل شىء !

— آه لهذه الحرية التي يحسدوننا عليها ! ما قيمتها بغير نقود !

لن أنسى مظاهر النعمة التى رأيتها هناك . لن أنسى أنى جلست كما ترانى الآن بين القوم الأغنياء وأجلسنا معنا غانيتين « بول دى لوكس » لم ترعينى أجمل منهما صنعاً ! صنعتهما أيدى حلاقين مهرة فجرة ! أجل يا جان . صدقنى ! أى تماثيل حية ! أين فيدياس وبراكسيتيل يشاهدان اليوم أعاجيب صالونات الزينة ومعاهد الحسن ! لم تعد المرأة وحياً وإلهاماً للخلق الفنى . ولكنها أصبحت هى نفسها قطعة فنية وخلقاً فنيا . وأصبح الوحى والإلهام لصنعها الصور والتماثيل ! وهكذا ثملت قليلا فيما يبدو لى من الشراب اللذيذ أو من الحسن الكثير فلم أنتبه إلا وأنا بين ذراعى حسناء أرقص معها على أنغام الجاز رقصة « البلوز » — كما قيل لى — بين رهط من الراقصين الحاذقين ... وأنا لا أعرف الرقص ما هو ... وما أحببت يوما أن أعرفه . وحانت منى التفاتة إلى مرآة الحائط فإذا على رأسى طرطور.

أحمر مذهب الحواشى . وإذا أنا ملتف فى حبال من ورق « السربانتان » . فسرت فى جسدى رعدة واستدرت حولى فإذا الجميع مثلى صغيرهم وكبيرهم قد لبسوا الطراطير والقلانس والتيجان من الورق المقوى مختلف الألوان واختلطوا فى رقص متلاطم عربيد كرقص عباد « ديونيزوس » . أجل يا جان .. كانت ليلة بديعة ، إنك لا تتصور كيف يمكن للإنسان أن يستمتع بالعيش هنا فى مونمارتر . وعلى مقربة منك ! إن هذا « الفأر الميت » لمفعم بالحياة !

صمت جان لحظة . ثم رفع رأسه وهزه ثم قال :

— كلا . كلا يا مسيو « الحكيم » . كلا . حياتنا نحن فى الركن الحقير . قهوة « سيرانو » وأمثالها وحانات « القط الأسود » و « الأرنب الخفيف » و « أرستيد برويان » و « الجنة » و « الجحيم » ... الخ ... تلك مونمارتر الحقيقية أما « الفأر الميت » وأشباهه فمصايد لاقتناص المال من جيوب الثراة .

تفكرت قليلا فى كلامه فوجدته الصواب فصحت :

— برافو يا جان . مرحى وألف مرة مرحى . هذا كلام عميق ما تقوله الآن . هذا حق ... أتعلم لماذا تركت أنا مونبارناس وجئت أعيش فى مونمارتر ؟ أحسست بما تقول أنت الآن : إن روح التجارة وقنص المال تكاد تعم مونبارناس الذى ينافس حينا هذا حتى ليكاد يقتله . شعرت أن مونبارناس ليس إلا حى السائحين من جميع

الأجناس . وحيث يظهر السائحون يظهر البذخ والكذب والادعاء . نعوت ثلاثة يهرب منها الفن هرباً . وأحسست من ساعتى أن مونمارتر فى أنحائها السافلة الفقيرة ما تزال مرتع الفن الخصيب والفكر الحر ... نعم .. لكم تنتعش نفسى إذ أجوس خلال هذه الجهة : شارع « روششوار » ... شارع « بلانش » ... ميدان « ترتر » . تلك المناطق المتواضعة التى خلدها موريس أوتريللو فى صورة ولوحاته ...

فقال خادم القهوة سريعاً فى إعجاب يلمع فى عينيه :

— أوتريللو ؟ لقد أتى هنا أيضاً وجلس فى هذا الركن وسمعت حديثه ...

— فى هذه القهوة ... وأى غرابة ؟... إنه لا يستطيع رغم شهرته الآن أن يسلو حياة التشرد فى مونمارتر . ولا يريد أن يهجر هذا الحى الذى نشأ فيه . ما أجمل هذا الإخلاص ! إنه ولا ريب المحب الأمين الذى لم تبرد عاطفته نحو مونمارتر ! لدى بعض صور منقولة عن لوحاته ... لكن لست أنظر فيها الآن كثيراً .. إنى أدخرها للغد يوم لا أجد عزاء غير الصور . أما الآن فإن مونمارتر تحتوينى بذاتها وحقيقتها ، وتهمس فى نفسى بكل شعرها وبكل موسيقاها الداخلية التى لن يخفت لها صدى ما دمت أعيش .

وسكت قليلا إذ بدا على شىء من التأثر . فسألنى جان :

— أتنوى أن تعيش هنا طويلا ؟

— ياليت ...

قلتها من كل قلبى وأنا أرى شبح المصير الذى ينتظرنى .

— اسكت يا جان ! لا تذكرنى بالغد ... إنى الآن أعيش ... حسبى هذا ... أعيش فى مونمارتر . فردوس الفن ... الذى سأفقده يوماً . سوف أذكره مع الحسرات . وأذكر حياتى الشاردة بين قهوة سيرانو وحانة « الأرنب الخفيف » . وسوف تتمثل لى كل لحظة تلك الحانة المظلمة بنورها الضئيل وروادها الجالسين إلى براميل انقلبت موائد ينظرون إلى رسوم على الحيطان وتماثيل كلها ذوق فى التصور ولذع فى الفكاهة وغرابة فى الأداء ، وينصتون إلى أغانى القرون القديمة وقد بعثت فى ثوب جديد من مغنين وشعراء حديثين موهوبين ، ويشربون « البورتو » ممزوجاً بالكرز ، ويضحكون من نكات الساقين الظرفاء مثلك يا جان ، تلك النكات الرشيقة المبطنة بحسن الذوق وعلو الكعب فى التخيل والشعر . حانة ساقوها وخدامها شعراء ومغنون . أليس منهم نبغ « كاركو » و « دورجليس » ؟! كما نبغت « إيفيت جيلبير » من قبل ؟

— أتذهب إلى تلك الحانة كل ليلة ؟

— أكثر الليالى عندما كنت أقطن بجوارها . أما الآن فإنى أقطن فى ناحية أخرى من الحى ، شأنى فى كل شهر . ما أحلى التنقل والحرية

يا جان ! مسكنى اليوم فى شارع « روششوار » . حجرة تحت سقف منزل يحتوينى أنا وشرذمة من المصورين « الكوبست » وأفتح نافذتى فأرى قبة كنيسة « ساكريه كور » البيضاء فى متناول يدى كأنها بيضة صورتها ريشة « جيورجيودى شيريكو » . شيء واحد يزعجنى فى حجرتى الجديدة : المطر الذى يتسلل من خلال السقف فأتقيه بإناء أضعه فى الفراش على رأسى طول الليل ! نعم يا جان . تلك حياتنا كما تقول . لكنى أحبها مع ذلك ولا أريد سواها . وأرى الجمال فيها أينما حللت . حتى مقبرة مونمارتر كنت أراها عن نافذة حجرتى السابقة ، قائمة فيها أشجار الكستناء وقد تدثرت بالجليد أيام « النويل » فكأنها ملائكة بيضاء . ما أبدعه منظرا يا جان ! لو شاهدته عينك ...

فرفع الخادم رأسه ثم قال :

— حقا منظر جميل ! ما للشعراء دائماً من بضاعة غير الجمال ! ألديك سيجارة على الأقل يا مسيو « حكيم » ؟

— ولا كبريت يا مسيو جان . مع الأسف . أنسيت أنى لا أدخن ؟

— حقيقة . حقيقة أنت لا تدخن قط مع الأسف الشديد !

— خمسة أشياء لم أفعلها قط فى حياتى . شرب الدخان . ولبس القفاز . وحمل الساعة . وركوب الدراجة . والعوم !

فضحك الخادم ضحكة كبيرة . وكنت قد مسحت إناء الحساء مسحاً . ومحوت وجود النبيذ محواً . فحمل جان الكوب والإناء وابتعد . وأردت أن أعود إلى ورقي فإذا الساعة تدق منتصف السادسة وإذا النهار يطلع ، وشاهدت من خلال زجاج الباب بعض العمال والعاملات في الطريق زرافات ووحدانا تمشي مسرعة إلى الترام والمترو ، وفي أيدي الجميع صحف الصباح . فطلبت إلى جان قبعتي ومعطفي فأحضرهما وهو يقول :

— لماذا تنصرف مبكراً الليلة ؟

— مبكراً ؟

— إنك لم تكتب حرفاً .

— لقد أدركنا الصباح يا جان . و « شهر زاد » تسكت عن الكلام والإلهام إذا أدركها الصباح .

فابتسم جان وتأمل لحظة ثم قال :

— إنها كمونمارتر .

فحملقت في وجهه بعيني دهشاً . ولكنه استطرد يقول :

— مونمارتر كذلك تسكت عن الكلام والإلهام إذا أدركها الصباح !

فألقيت بقبعتي على الخوان متحمساً وصحت به :

— جان ! واحد من أمرين : إما أنك ذكي الفؤاد . وإما أنك

شاعر بالسليقة . سم نفسك ما شئت . إنما أنت الآن تقول قولا صادقاً جميلا بدون أن تشعر : إن مونمارتر هي شهر زاد . وإني — لو عرفت الحقيقة — ما قطنت هذا الحي عبثاً . ولسوف تقرأ « شهر زاد » وتتعرف فيها ملامح مونمارتر . إن « شهر زاد » في نظري لم تكن يوماً قصة الخيال والبذخ والخرافة كما فهمها الشاعر « كاتول منديس » في قصيدته ... والموسيقى « رمسكي كورساكوف » في قطعته السانفونية لكنها عندي قصة الفكرة والحقيقة العليا . قصة الروح التي خرجت من المادة . كذلك مونمارتر التي اشتهرت بلهوها وانغماسها في بؤرة المادة ... أي روح تخرج منها كل يوم فياضة بالخلق والإبداع ! مونمارتر هي تلك المرأة اللعوب ذات الروح العميقة، هي غانية تنام النهار وتسهر الليل تكشف لعشاقها محاسن الحياة وأسرار الحياة . هي أيضا كشهر زاد تعمر الليل بأقاصيصها وحكاياتها عن الحب والفن حتى الصباح ، فتسكت عن الكلام المباح وغير المباح ! ولكن شهر زاد قالت ما عندها في ألف ليلة وليلة ، ثم سكتت سكتة الأبد لأن زوجها وعشيقها شهر يار كان قد أصغى إليها وانبهر مما سمع فزالت عن عينيه غشاوة الماضي ، وأبصر ما في الحياة وما بعد الحياة من معان وأسرار ، وأدرك أنه قبل أن يعرف شهر زاد ما كان إلا طفلا يلهو ويعبث كل ليلة بزوجة يقتلها في الصباح . فإذا هو مع شهر زاد يرى في الحياة أشياء أخرى غير مجرد

اللهو والعبث . إن شهر زاد مُربية شهر يار ومثقفته فى « ألف ليلة وليلة » قد صنعت منه رجلا . ثم صيرته بعد ذلك شيئاً آخر غير الرجل : ما بعد الرجل .. مونمارتر كذلك تدخلها طفلا يلهو فتصير رجلا يشعر ويحس ثم تتركها مخلوقا يتأمل ويفكر ... أى تأمل وأى تفكير ؟ شهر زاد قامت بمهمتها فى ألف ليلة وليلة . أما مونمارتر فتقوم بمهمتها فى كل ليلة منذ مئات الأعوام .. لا مع رجل واحد . لكن مع رجال كثيرين . لا مع كل إنسان . لكن مع الإنسان الذى يصغى إليها ويجلس بين يديها ويعرف لغتها ويفهم عنها وينفذ إلى روحها السحيق من خلال ظاهرها اللاهى الماجن المبتذل الخفيف . نعم يا جان . بل إنى أريد أن أقول أكثر من هذا . أريد أن أقول إن مونمارتر ليست قط تلك المرأة الفاجرة التى توحى باللذة السافلة . كلا . إنها فى أعماق نفسها امرأة لا توحى بغير الطهارة الكاملة . أقسم لك يا جان إنى فى حياتى ما أحسست الطهارة العليا الكاملة إلا فى هذا الحى الخليع ! أتصدق هذا ؟ أتعرف السبب ؟ السبب بسيط : الحرية . تلك الحرية المطلقة فى إتيان أية رذيلة بدون خشية قيد أو تحريم . هذه الإباحة للرذيلة زهدتنى فى الرذيلة نفسها. إن الإنسان بطبعه يطلب الممنوع عنه المحرم عليه ويزهد فى المباح . إن الملك شهريار الذى استمتع طول حياته السابقة بالنساء وباللذة الجسدية كاد يقتله الملل فصار يقتل كل امرأة بعد ليلة واحدة . حتى جاءته شهر زاد فكشفت له عن اللذة

الروحية فإذا هو ينقلب إنسانا يعشق كل ما هو روح ويمقت كل ما هو مادة . وإذا هو يصيح كلما عرضت له المادة : « شبعت من الأجساد .. شبعت من الأجساد ! » . هذه الصيحة انطلقت من فمي يوماً .. كما انطلقت من فم كل فنان فى مونمارتر . أرأيت كيف أن مونمارتر هى فى حقيقتها مملكة الروح لا مملكة المادة ! أكثر من هذا أيضا يا جان : مونمارتر هى النافذة المفتوحة على بيداء الفكر المهلكة . هى المحطة التى يبدأ منها كل فنان أو مفكر رحلته المخيفة فى طريق البحث عن الحقيقة العظمى : علمته مونمارتر التفكير فاتجه إليه هازئاً بالعاطفة غير حافل بأعباء السفر حتى يظفر بالمجهول . ألا تذكر : بيكاسو . جان كوكتو . إيريك ساتى . زادكين .. إلخ . أسماء فى التصوير والشعر والموسيقى والنحت ذهبت مغامرة فى تلك البيداء .. لا يعلم أحد أتعود أم لا تعود . كذلك شهر زاد أوحت لزوجها بجمال الفكر فخلع عنه العاطفة وانطلق يهيم فى تلك الصحراء خلف سراب العقل والفكر ... لا يعلم أحد أيعود هو أيضاً أم لا يعود . كل هذا وشهر زاد باقية كمونمارتر ترمق محبها القادم والراحل بتلك النظرة الهادئة العميقة ، وتلك الابتسامة التى لا يدرك لها كنه ...

وصمت قليلا ، ورفعت عينى إلى جان فإذا هو واقف بغير حراك يصغى وكأنه فى حلم . ودخل القهوة رهط من العمال والعاملات

يطلب كل قدحاً من القهوة وخبزاً صغيراً . فانتبه الخادم وانصرف إليهم مسرعا . ولبست ووضعت معطفى فوق منكبى ... وتوجهت إلى حجرتى ... أسدل سجفها حتى لا يزعجنى الضوء ... وأملأ زجاجة الماء الساخن أضعها تحت قدمى خوف البرد ، وأنام حتى « مطلع » الليل . شأن الفنانين عشاق مونمارتر المدللين ... الخاضعين لهذا الشعار : « حياة الليل وموت النهار » .

مصير الإنسان

قرأت البارحة ، تحت مصباحي الأخضر ، في كتاب حديث ظهر هذا الشهر « لموريس مترلنك » هذه العبارة :

« سوف تأتي على الإنسان لحظة يأبى فيها الحياة ، ما لم يكر عائداً إلى « الحيوانية » » !

فذكرت من الفور الملك شهريار في قصتي « شهر زاد » . إن هذا الإنسان قد حاول عبثاً أن يتذوق الحياة في آخر أيامه ، فلقد بلغ من التجرد الفكري وقتئذ مبلغاً باعد بينه وبين البشرية ، هذا الرجل كان قد مر بكل الأطوار التي تعرفها الحياة الإنسانية ، فقد عاش حياة الحيوان يوم كانت تقدم له في كل ليلة عذراء يفتك بها في الصباح . وعاش حياة القلب يوم عرف « شهر زاد » فأحب جوارها ، ونسي القتل والفتك ، وجلس إليها ينظر في عينيها ويصغي إلى قصصها . ثم عاش حياة العقل يوم أيقظ فكره حديث شهر زاد واتسعت أمام بصيرته آفاق عوالم ليس لها حدود ، فنهض على قدميه ، وانطلق يهيم في أجواء الفكر العليا . وفتنه حب المجهول واستكشاف المستور ، ولم يسعفه العلم فلجأ إلى السحر ، ولم يطفئ غلته السحر فعاد إلى الفكر ، وضاقت به الأرض ، فتطلع إلى السماء . ولكن السماء لا

يرقى إليها البشر ، وهو لا يريد العودة إلى الأرض .تلك الأرض التى سئمها وعاف ثمارها المادية والروحية ، واستنفد لذائذها السفلية والعلوية . لقد فرغ من كل شىء ، وشبع من كل شىء ، و لم يعد على هذه الأرض شىء يغريه بالبقاء إلا أن يعرف . إنه يريد أن يعرف.. يعرف ماذا ؟ يعرف ما لم يسمح لآدمى أن ينفذ إليه ، تلك لذته الوحيدة التى بقيت له ، وذلك هو خيط الأمل الذى يربطه بالحياة ، ولقد أصابه فى ذلك ما يشبه الخبل . فهو يمضى الليل يتطلع إلى نجوم السماء كأنه يسألها أن تجيب عن أسئلة فكره الحائر . وتعب الفكر واضطرب فى بناء جسمه الكليل . وأيقن أن الجسم هو الوتد الذى يعقل روحه.ويلصق فكره بالأرض . فثار على الجسم ، وأراد أن يتحرر من سجنه . وسجن الجسم هو « المكان » كما أن سجن الماء هو « الوعاء » . فرأى أن يفر من جدرانه بالسفر والرحيل . فطوف فى البلاد و القفار حتى وجد نفسه آخر الأمر يعود إلى حيث بدأ المطاف ، وأدرك أن ليس فى السفر سوى تغيير إناء بعد إناء ، ومتى كان فى تغيير الإناء تحرير الماء ؟ فألقى بنفسه بعدئذ فى خان أبى ميسور ، طالباً الهرب من الجسم والمكان فى غيبوبة القنب والدخان ...

فى أثناء هذا كله كانت شهر زاد ترقبه فى عطف ويأس . وعلمت أنه إنسان هالك . فهو قد ترك الأرض و لم يبلغ السماء . فهو معلق بين الأرض والسماء ينخر فيه القلق . و جعلت تحتال فى علاج الداء .

أما السماء فمن الجنون أن يفكر إنسان فى بلوغها وهو إنسان . فلا مناص إذاً من إعادة شهريار إلى الأرض إذا أريد له الحياة . فلجأت إلى « العبد » كى يعينها على إيقاظ « الحيوان » المحتضر فى أعماق شهريار ، ولكن التجربة لم تنجح فكان على شهر يار أن يختفى من مسرح الوجود ...

من الغريب أنى منذ كتبت هذه القصة ، وقد مضى الآن على وضعها نحو خمسة عشر عاماً ، وأنا أفكر فى إرجاع هذا الملك التعس فى قصة أردت أن أسميها « عودة شهر يار » . غير أنى وجدت أمر عودته عسيراً ، إن لم يكن مستحيلا . فهو لن يعود بالطبع كما ذهب . إذ لا فائدة عندئذ من القصة الجديدة . فلا بد إذاً من أن يعود شخصاً آخر . وهنا الصعوبة ما الذى سيعيد هذا الرجل ؟ إنه كان قد ذهب فى تلك اللحظة التى ينبغى أن تقف عندها كل حياة بشرية . إن شهر زاد نفسها لم تستطع شيئاً . فهل أستطيع أنا ؟ إنها قد رأت ما به ، وأدركت أنه شعرة بيضاء قد نزعت ، وأنه ككل شىء فى هذا الوجود قد دار وصار إلى نهاية دورة . فإذا عاد فإنما يعود من أول الحلقة : مولوداً جديداً يمر بطور الحيوانية من جديد ...

هل فهم أدباؤنا المعاصرون

حقيقة رسالتهم ؟؟

قبل كل شيء ما هي رسالة الأديب ؟

أهي تقف عند حد إخراج كتاب جميل ، أو إنشاء مقال طريف ، أم أن لها هدفاً أبعد من هذا ؟

للإجابة عن هذا السؤال ينبغي أن نذكر أن هنالك قيما معنوية تقوم عليها كل حياة بشرية عليا . تلك هي التي نسميها : « الحرية » ، « الفكر » ، « العدالة » ، « الحق » ، « الجمال » .

هذه القيم لا بد أن يكفل حمايتها في كل مجتمع راق هيئة من الرجال الأقوياء .

من هم هؤلاء الرجال المنوط بهم حراسة هذه القيم ؟ أهم رجال دولة رسميون ؟ هذا مستحيل . فإن للدولة ومصالحها السياسية اعتبارات قد تصادم هذه القيم . وما زال التاريخ الحديث يذكرنا بمثل « إميل زولا » في وقفته الخالدة لنصرة « العدالة » ضد عدوان حكومة قوية الشوكة ، وطغيان دولة مرهوبة السلطان .

كلا . إن هذه القيم العليا لا يمكن أن يؤتمن عليها غير رجال الفكر

الأحرار وحدهم ، هم الذين كانوا ويكونون سدنتها فى كل زمان ومكان .

وهنا خطر رجال الأدب والفكر .

* * *

فى أوروبا يفهم الأدباء حق الفهم هذه الرسالة. فتراهم كلما هبت ريح الخطر على إحدى هذه القيم يهبون متساندين يعقدون الاجتماعات ، ويصدرون البيانات ، على النحو الذى لا نألفه فى مصر والشرق إلا فى الشؤون السياسية . تلك الشؤون التى تعد صبيانية إلى جانب شؤون الفكر الخالدة . فإن إصدار بيان سياسى أمر لا يعنى غالباً غير اللحظة والمناسبة التى صدر فيها . أما إصدار بيان فكرى لحماية إحدى القيم المعنوية العليا فهو أمر يعنى تاريخ البشرية جمعاء .

لذلك يملأ نفسى العزاء الجميل ويهزنى الفخر العظيم إذ أرى أدباء أوروبا اجتمعوا ويجتمعون من آن لآن يتباحثون فى « مستقبل الفكر فى أوروبا » وهو محفوف بأخطار الحروب البربرية التى لن تبقى أثراً لدار كتب ولا لمتحف فن ولا لمعهد علم .

هنالك فى مثل هذه الاجتماعات نجد كل أديب قد تجرد من رداء جنسيته الزائل ، ليدخل معبد الفكر الخالد ويتكلم باسم تلك الهيئة الواحدة المتحدة التى تعيش للدفاع عن قيم البشرية العليا .

هنالك نجد الجميع على اختلاف أممهم ، الإنجليزى بجانب

الفرنسي والأمريكي والروسي والألماني . يتكلمون لغة واحدة هي لغة الفكر الأسمى . وتراهم قد خلفوا وراء ظهورهم مصالح بلادهم السياسية ومبادئها الدنيوية لينظروا في مبادئ الفكر وحدها ومصلحة الإنسانية في مجموعها .

من أراد أن يدخل على قلبه السلوى والعزاء كما فعلت ، ويحس أن للبشرية المتحضرة حراساً عظاما ، فليقرأ الخطب التي ألقاها في اجتماع « مستقبل الروح الأوروبي » كل من : فاليري ، وهكسلي ، وكيسرلنج ، وتوماس مان ، وطاغور ، وسنكلر لويس وغيرهم ممن فهموا رسالة الفكر على أنبل نحو وأرفع وضع .

* * *

على أن هنالك أيضاً في داخل كل أمة وقفات يقفها رجال الأدب في كل ظرف يهدد الحياة الأدبية أو الفكرية ، ولو من بعيد وعن غير قصد . فنهوض الهيئات الأدبية لحماية حرية الفكر أو القلم أمر يشاهد في كل يوم . إنما الجميل أن يعنى رجال الأدب أيضاً بمسائل أقل من هذا خطراً ! من ذلك قيام الأديب الفرنسي جورج دوهامل ومعه غيره من الأدباء يتدبرون الخطر الذي يهدد « الكتب » الأدبية على أثر انصراف الناس إلى سخف السينما والراديو والمجلات المبتذلة .

وقد رأوا في ذلك كارثة سوف تحيق لا بالأدب وحده ، بل بجيل أو أجيال كاملة سوف تشب على غذاء روحي فاسد أو ناقص ، مما

يترتب عليه انحطاط الذوق العام ، والسير بالبشرية القهقرى .

ومن ذلك أيضاً قيام هؤلاء الأدباء يطالبون الحكومة باستثناء صناعة طبع ونشر الكتب من الضرائب التى فرضتها وزارة « بلوم » على كافة الصانعين والمنتجين . وقد آزرهم يومئذ فى ذلك وزير معارف بلادهم ونجحوا أخيراً فى حماية الكتب وصناعة التأليف من سيطرة القوانين الضارة بنموها وذيوعها .

* * *

إذا مضيت فى سرد الأمثلة على تيقظ أدباء أوروبا وفهمهم رسالتهم فإنى لن أفرغ . وكلنا يقرأ ذلك فى صحفهم كل يوم . إنما المسألة التى أحب أن أضعها الآن موضع البحث هى : مدى فهمنا نحن هذه الرسالة !! إنى لن أتهم بالمبالغة إذا قلت إن أغلب أدبائنا يفهم رسالة الأديب على أرخص أوضاعها وأبخس نواحيها . فهم الأديب عندنا أن يخرج كتابا يبيع منه عدداً من النسخ أو يكتب مقالا يقبض ثمنه مبلغاً زهيداً من المال . ثم ينام بعد ذلك قرير العين . فهو وصانع « القلل » الفخار سيان . كلاهما لا يرى أنه يحقق فكرة سامية على الأرض أكثر من صنع « شيء » يباع فى السوق ويقوم بأوده يوما أو يومين .

وكلاهما لا تنظر عيناه إلى أبعد من حانوته الصغير وبضاعته القليلة. فإذا حاق بحانوت جاره شر أو ضرر أو عدوان قد يفرح وقد لا

يفرح ولا يحزن ، ولكنه على كل الأحوال لن يحرك ساكناً ، فالأمر لا يعنيه ولا يعنى حانوته هو .

نعم . لدينا أيضاً أخطار تهدد تلك القيم العليا فى صميمها ، ولكن ما من أحد يتحرك لذلك . فإذا تحرك واحد سكت الباقون وتركوه يناضل وحده ، حتى يضعف ويقنط وتخور قواه . وماذا يعنيهم هم من ذلك ، إنهم لا يفرقون بين النضال الشخصى والنضال العام فى سبيل فكرة أو مبدأ. وإن استطاعوا التفريق، لم يستطيعوا التجرد من منافعهم الفردية ومصالحهم الشخصية . فهذا أديب موظف يخشى على وظيفته ، وهذا أديب من حزب سياسى يخشى أن يتورط فى النضال من أجل فكرة يرى فيها سمواً ، ولكنه أيضاً يرى فيها إحراجا لحزبه . ومتى تعارضت المصلحتان ، فمصلحة الحزب تقدم عنده على مصلحة الفكر . أما الصحف الأدبية فشأنها أعجب من ذلك ، فهى لم تعرف بعد كيف تنهج نهج الصحف السياسية فى تحمسها لمبدأ معين . فالصحيفة السياسية عندنا قد أدركت منذ زمن أن واجبها يقضى عليها بالدفاع عن عقيدة سياسية . فهى تخلق من أجلها وتعيش بها وتهمل كل ما خرج عن نطاقها. أما الصحيفة الأدبية عندنا فلا تجعل من شأنها الدفاع عن العقيدة الأدبية وما يتبعها من تقديس الرأى والذود عن حريته . إنما هى صحفات تضم جملة مقالات أدبية فى مواضيع شتى

لا غاية لها سوى تزويد القارئ بشيء من المعلومات الطريفة . مجلاتنا الأدبية هي الأخرى حوانيت صغيرة فيها ألف صنف وصنف لتسلية الجمهور تسلية شريفة . ولكنها لم ترتفع بعد إلى حيث تكون صاحبة لسان حال ينطق باسم العقيدة الفكرية فى الظروف الخطيرة والمناسبات العصيبة ، فيحدث قولها هزات قوية فى طبقات المجتمع المستنيرة ، ويسمع لصرير أقلامها دوى فى أزمات الفكر كأنه قصف المدافع ! على النقيض . قد تظهر فى أفق الفكر أزمة فكرية فتتحدث عنها الصحف اليومية وتسكت صحف الأدب ، إما لأن الأمر لا يعنى حانوتها ، وإما لأنها تؤثر لنفسها الأمن والعافية . وهى فى كلتا الحالتين غير مؤمنة بأن لها رسالة فى مثل هذه الشؤون .

* * *

أمام كل هذا وقف الأدب ذليلا لا حول له ولا طول ، وضاعت هيبة الأدباء فى الدولة والمجتمع . وأنكر الناس ورجال الحكم على الأديب استحقاقه للتقدير الرسمى والاحترام العام . فالعمدة البسيط تعترف به الدولة ، وتدعوه رسمياً إلى الحفلات باعتباره عمدة . أما الأديب فمهما شهره أدبه فهو مجهول فى نظر الرجال الرسميين ، ولن يخاطبوه على أنه أديب .

ومتى كان هذا شأن حراس « القيم العليا » فى أمة ، أدركنا مبلغ

هوان هذه القيم نفسها على هذه الأمة ، « فالحرية » و « العدالة » و «الفكر» و «الحق» و «الجمال» كلمات نسمع لها رنيناً فى البلاد الأوروبية المتحضرة غير الرنين الذى نسمعه لها فى بلدنا المسكين (إن وجد لها عندنا أى رنين !) على أنه لا عجب . فكيف نريد أن يكون الأمر غير ذلك وحماة هذه القيم أنفسهم لا يعتقدون أنهم حماتها ؟ إنهم أدباء ما زالوا فى أطوار الأدب ، ذلك الطور الابتدائىّ الذى أستطيع أن أسميه : « الصناعة اليدوية » للأدب .

هل تنقص المرأة

بعض المواهب الفنية ؟

أردت أن أطالع كتابا للروائية « بيرل باك » ، التي نالت هذا العام جائزة نوبل للآداب ، فما كدت أذكر أني أقرأ لامرأة ، حتى استوقفت ذهني حقيقة وضعتني موضع المتأمل : تلك الحقيقة هي أني لم أقرأ بعد حتى اليوم شيئاً لامرأة . كيف وقع لي ذلك ؟ وكيف لم ألتفت إلى هذه الثغرة في مطالعاتي قبل الآن ؟ وما تلك اليد التي وضعت على عيني فلم أر أدب المرأة كما رأيت أدب الرجل ؟

من الإسراف في القول أن أزعم أني لم أقرأ في الصغر شعر الخنساء ، أو لم أعجب بعنان جارية الناطفي ، كما أني معترف بأن مكتبتي لا تخلو من مؤلفات شهيرات النساء في أزهى العصور . غير أن الذي أستطيع أن أفضي به دون أن أكذب ، هو أني لم أفتح هذه المؤلفات ، ولم أكن يوما من قراء كاتبة من الكاتبات . لا ينبغي أن يفهم من هذا أني أهمل شأن المرأة عن عمد ، أو أني أنكر عليها الموهبة والنبوغ . الأمر على النقيض . فأنا أقف من نفسي موقف المعاتب المعنف ، لا موقف

القانع الراضى . ولقد اعتدت فى كل شؤونى الفكرية أن أترك القيادلنفسى ولغريزتى الفنية : فهى التى تختار لى ما ينبغى أن أقرأ ، وهى التى ترشدنى إلى ما يصلح غذاء لى . وإنى لأمر بواجهات المكتبات فى اليوم مرات منذ سنوات طويلة ، فأرى كل ما يعرض يعجبنى ، ويلذ لى النظر إلى الكتب لمجرد النظر ، واتأملها كما تتأمل المرأة الثياب الزاهية فى الحوانيت .

ولو أنى تركت الأمر لرغبتى ولذتى لاقتنيت حتى اليوم من الكتب ما يملأ قاعات ولكنى مع ذلك أقل الكتاب شراء للكتب . فأنا لا أشترى إلا لأقرأ ولا أقرأ إلا ما أحس بغريزتى الفنية أنه يحدث فى مجرى تفكيرى أثراً . ولقد هدتنى نفسى حتى اليوم فأحسنت هدايتى . ولقد راجعت اختيارها لى فألفيته فى الحق أحكم اختيار . فما بالها إذن قد صدفت عن مؤلفات النساء ؟

كان هذا موضوع تساؤلى الليلة . وهبطت إلى أعماق نفسى ، فاستكشفت الجواب : إن ميولى الفنية قامت منذ الصغر على عمادين : النزعة الفلسفية والتركيز فى الأداء . لهذا اتجهت مطالعاتى إلى نوعين من الكتب : المؤلفات الجافة التى تتصل مباشرة بالفلسفة أو العلم ، أو المحتوية على مادة فكرية خالصة . ثم القصص التمثيلى ، وهو المظهر الوحيد من مظاهر الأدب الإنشائى الذى وجدته مبنياً على

« التركيز » فى الأداء . هذان النوعان بالذات لم أجد للمرأة فيهما أثراً بارزاً أو غير بارز . فليس للمرأة منذ أن ظهر لها إنتاج فى تراث الفكر البشرى مؤلف واحد فى مسائل الفلسفة أو شؤون الفكر العويصة . وليس للمرأة حتى اليوم قصة تمثيلية واحدة اتخذت لها مكاناً فى تاريخ الأدب التمثيلى الخالد . تلك ظاهرة عجيبة فى طبيعة المرأة ! إن المرأة منذ فجر التاريخ حتى اليوم قد برهنت على ذكاء عظيم ، ودقة إحساس تستثير الإعجاب . ولقد ظهرت فى ميادين النشاط الفكرى شاعرة فياضة بالوحى الإلٰهى وناثرة قديرة على إيقاظ أنبل عواطفنا الإنسانية . ولقد استطاعت أن تكون ملكة وحاكمة وقائدة جيوش وسياسية محنكة وصانعة تماثيل ومصورة ومغنية وراقصة وعازفة . كل شىء قد برزت فيه ، وساوت فيه الرجل ، وفاقته أحياناً ، وتركت للناس فيه أحدوثة باقية وذكراً خالداً . نعم . كل شىء استطاعته المرأة خلا شيئين : أن تكون « فيلسوفة » وأن تكون « مؤلفة قصص تمثيلى » .

لماذا ؟ لماذا وقفت عبقريتها عاجزة أمام هذين « النوعين » ؟

أترى « التفكير » و « التركيز » صفتين ناقصتين عند المرأة ؟

لا أحب أن أقطع بذلك . ولكنى أريد أن أقول إن « الشعور » و « التحليل » هما الدعامة التى شيدت عليها المرأة كل آثارها الخالدة فى

تـاريخ الآداب والفنـون . فمـن شاعـرات العـرب والإسلام و « سافو » ، إلى « مدام دى ستال » و «جورج ساند» و «جورج إليوت » إلى « كوليت » و « مارى وب » و « كاترين ما نسفيلد » و « سجريت أندست » . كلهن قد ارتفعن متألقات فى سماء الفن على أجنحة « العاطفة » الرقيقة . وكلهن قد أظهرن من البراعة فى « التحليل » ما قصر عن إدراكه كثير من نوابغ أهل الفن من الرجال . و « التحليل » هو الملكة التى لا بد منها لكل كاتب يعالج « الرواية الخالصة » . فهذا النوع من الأدب إنما يقوم على النفوذ الدقيق إلى نفوس الناس وضمائر الأشخاص ، مع التفات خاص إلى كل ما يحيط بحياتهم من أشياء ، ومع عناية كبرى بذكر التفاصيل التى تخفى على العين العابرة ، والإسهاب فى تحليل المشاعر المستقرة فى نفس الكاتب كلما سمحت بذلك ظروف الموضوع . وهنا مجال التفوق يتسع للمرأة . وهنا استطاعت بالفعل أن تظهر من طول الباع وقوة الجلد على تحليل التفاصيل ما أثبت لنقاد الأدب من الرجال أن « الرواية الخالصة » نوع توشك المرأة أن ترفع عليه علم السيادة . ولقد قرأت ذات مرة كلمة دهشة لناقد قرأ رواية لكاتبة إنجليزية ذكر عنها بعض تلك الصفات التى تميز المرأة فى كتابة القصة ، فتأملت يومئذ أنا أيضاً الأمر وقلت لنفسى : « لا عجب ! إن المرأة تمسك « بالقلم » لتصنع

قصة كما تمسك « بالإبرة » لتصنع ثوبا من « التريكو » . وإن « القصة » النسوية بما فيها من تفاصيل دقيقة لشئون الحياة اليومية ، ومن إسهاب وإحصاء لتفاهات الحوادث المنزلية ، ومن وصف وتحليل لأبسط الإحساسات الداخلية ، ومن بسط وتجميل لكافة المشاعر الإنسانية . كل هذا ليس فى حقيقة الأمر سوى نوع « من شغل الإبرة » !

* * *

هذا فى الأدب ، أما فى ألوان الفن الأخرى فالمرأة كذلك قد تخلفت كلما تطلب الفن ملكة « التركيز » . والتركيز هو الصفة اللازمة « للبناء » . والبناء عمل يحتاج إلى شيء من التفكير . بل إلى شيء من الذهن الرياضى . فهو ليس مثل « التحليل » مجرد سرد للتفاصيل وطرح للعناصر . إنما هو اختيار ذهنى لخير التفاصيل وأصلح العناصر لتشييد جسم قائم له فى ذاته حياة ، وله جمال ، وتنبعث من مجموعه فكرة .

لهذا لم تستطع المرأة أن تكون « مهندسة » فى فن العمارة . ولم نجد لها ذكراً بين أولئك العباقرة من الرجال الذين شيدوا الهياكل فى الزمن القديم ، ولا بين هؤلاء الذين يقيمون الآثار الجميلة فى الزمن الحديث .

* * *

فن الموسيقى أيضاً تقف أمامه المرأة هذا الموقف الغريب . فهى عازفة بارعة ومغنية حاذقة . لأن « شعورها » العميق يعينها على أداء الألحان خير أداء . ولكنها لم تستطع حتى اليوم أن تكون هى « واضعة الألحان » . لم يشهد تاريخ الموسيقى « امرأة ملحنة » وضعت « قطعة سانفونية » أو تركت « أوبرا موسيقية » لها ذكر بين الآثار الموسيقية المعروفة فى التراث القديم أو الحديث . لماذا ؟ لأن وضع « قطعة موسيقية أو سانفونية » هو أيضاً « بناء وتشييد » مثل بناء معبد أو بناء قصة تمثيلية .

* * *

أحسبنى قد وضحت لنفسى وللناس سر صدوفى عن أدب المرأة . هنالك مع ذلك شىء آخر ، قد يكون سببا لما تقدم أو نتيجة له ، لست أدرى على وجه التحقيق . هذا الشىء هو : إنى أكره فى غالب الأحيان قراءة القصة المروية . نعم ، لا مناص لى من الاعتراف بهذا الأمر المخجل . ليس لى صبر ولا جلد على مطالعة قصة خالصة ، وقد حرمت بذلك الاطلاع على كثير من أروع آثار الأدب الحديث . ومن بينها بالضرورة أدب المرأة ، وهو كله قصص خالص .

* * *

كل شىء إذاً قد باعد بينى وبين المرأة فى مجال الخلق والفن . فأنا

أحب الفلسفة ، والقصص التمثيلى ، وفن العمارة ، والموسيقى السانفونية .

أعمدة أربعة من عمد « البناء » الذهنى يقوم عليها عالم فنى عظيم ، لم تأذن الطبيعة للمرأة فى أن تساهم فى رفعه بنصيب .

أثر المرأة

فى أدبائنا المعاصرين

إن كل ما يعنينى اليوم من أمر أدبائنا المعاصرين هو ذلك الجانب المجهول المستور الذى لا يحبون أن يكشفوا عنه للناس . إن أدباءنا يعلمون ـــ بحكم ثقافتهم واطلاعهم فى تاريخ حياة العظماء ـــ أن المرأة كانت فى أكثر الأحوال ذات أثر بارز ، لا فى تلوين حياتهم وحدها ، بل فى توجيه أعمالهم وتصريف أقدارهم ، فهنالك ملكة سبأ فى حياة سليمان ، وكليوباترا عند قيصر وأنطوان ، وجوزفين مع نابليون ، وهنرييت فى عمل رينان ، وملتون وابنته ، وكارل ماركس وزوجته ، وإبراهام لنكولن وقرينته . بل عندنا خديجة والنبى محمد ومؤازرتها إياه فى مبدأ جهاده ، ثم أثر بقية النساء فى حياته ، فلولاهن ما نزلت بعض آيات القرآن . ذاك أثر المرأة فى الأنبياء والعظماء . أما أثرها فى الشعراء والأدباء ، ورجال الفن والفكر ، فهو يكاد يعد فى حكم الناموس ،فما من شاعر أو أديب أو فنان عاش كل حياته وأنتج كل عمله ، بعيداً عن امرأة أو شبح امرأة أو ذكرى امرأة . إن عبارة

« فتش عن المرأة » ينبغي أن ترسخ فى ذهن كل مؤرخ يتصدى لدرس شاعر أو أديب أو فنان . « فتش عن المرأة » عند أهل الفكر والفن . فتأثيرها فيهم شديد . إن وجدت فى حياتهم وإن لم توجد . وهنا قوتها . فهى تؤثر بوجودها واختفائها . وهذا ما حدث بالفعل ، ويحدث كل يوم فى تلك الكتب التى تظهر بين آن وآن . حاوية لتراجم هؤلاء الرجال ، باحثة ظروف تآليفهم ومؤثرات أعمالهم .

ترى هل فى مقدور مؤرخ أن يدرس أثر المرأة فى أدبائنا المعاصرين .

آه . الويل للمؤرخ الذى يفعل ذلك ! إنه لن يستطيع فى سهولة أن ينفذ إلى حياة أدبائنا الخاصة . فهم مازالوا فى حالة « حجاب » ، وقد وضعوا على منابع وحيهم ومصادر مشاعرهم الخلاقة ، نقاباً كثيفاً كنقاب المرأة المصرية قبل السفور . إنهم ما زالوا يحمرون حياء دونه حياء العذارى كلما لمس أحد الباحثين ذلك النقاب الذى يخفى عواطفهم الدفينة أو ذكرى خفقات قلوبهم القديمة . و لم يؤمنوا بعد بأن طبيعة عملهم تقتضيهم أن يصدقوا الناس والتاريخ عما فى نفوسهم من مشاعر خفية . فما الفنان إلا رجل عرض قلبه ونفسه للتشريح العام أمام البشرية والزمن . فنحن إذن فى موقف غريب : إن سفور المرأة فى مصر قد سبق سفور الأديب . من أجل هذا نرى أن جانباً كبيراً من

أدبنا الحديث مازال أدباً « حبيساً » تفوح منه رائحة الحجرة المغلقة . أدب صناعة ، وأدب « علب محفوظة » من التعبيرات المستعارة والأساليب والدراسات المستخرجة من خزائن الأقدمين . أما أدب الهواء الطلق ، أدب التعبير عما فى أعماق النفس فى حرية وأمانة وإخلاص ، أدب الحياة النابضة بتفاصيل المشاعر الآدمية . هذا الأدب الخارج من القلب ليخاطب كل قلب على وجه البسيطة . هذا الأدب العالمى الذى يؤثر فى نفس كل أمة وكل جنس وكل آدمى ، لأنه نبع صافياً خالصاً حاراً من قلب آدمى . هذا الأدب حظنا منه قليل ، لأن حظنا من الصراحة والصدق قليل .

* * *

ومع ذلك فإن هذا القليل يكفينا فى الوقت الحاضر ، على شرط أن نتعهده بالعناية وحسن الالتفات . إن من بين أدبائنا المعاصرين من خرج سافراً من الحجرة المغلقة ، ليكشف للناس عن بعض مشاعره الخاصة فى شجاعة وصراحة . فهذا « طه حسين » قد أعلن للناس فى كتابه « قصص تمثيلى » ذلك الإهداء الجميل : « إلى زوجى التى جعل الله لى منها نورا بعد ظلمة وأنساً بعد وحشة ونعمة بعد بؤس أرفع هذا الكتاب » . ثم تلك الصفحة الرائعة التى صدر بها كتابه « مع المتنبى » :

﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ... ﴾ صدق الله أيتها الزوج الكريمة وتمت كلمته ، ففى ظل هذه المودة درست هذا الشاعر العظيم ، وفى ذرى هذه الرحمة أمليت هذه الفصول . وإن قلبى ليملؤه البر ، ويغمره الحنان حين أذكر ما كنت تبدئين وتعيدين فيه ، أثناء ذلك من حث لى على الراحة ، ورغبة إلى فى التروض ، وإلحاح على فى الاستمتاع بنعيم الحياة ، وجمال الطبيعة فى جبال الألب ، وما كنت ألقى به عطفك من إباء وإعراض ، وما كان يثور فى نفسك من غضب مصدره الرحمة والإشفاق . وإنى لأعلم أنى كنت فى ذلك قاسيا جافياً ، ولكنى أعلم أنى مدين لهذه الجفوة ، وتلك القسوة بهذا الكتاب . فأذنى لى فى أن أقدمه إليك ، لعله ينسيك من ذلك ما لا تزالين تذكرين » .

هذه حالة ظاهرة لعين الباحث . ولكن هنالك حالات مستورة لم ينوه عنها أصحابها إلا تلميحاً ، فعلينا إذن أن نستخرج مكنونها من بين السطور . فذلك « هيكل » فى قصته « زينب » قد وصف امرأة لكنه لم يخبرنا أهى امرأة حقيقية رآها فى الواقع يوما فألهمته هذه القصة . أم أن الأمر كله من صنع الخيال ؟ على أن « هيكل » فيما أذكر قد تحدث فى موضوع آخر عن سيدة أوربية قابلها فى بعض أسفاره بالخارج .

حدثته كثيراً وحدثها فى شئون الأدب ، فما غادرته حتى استقر فى نفسه العزم على كتابة القصة . إنه إذن قد لقى فى حياته هو أيضاً امرأة أثرت فى عمله ووجهته بعض التوجيه .

ثم يأتى « العقاد » بقصته « سارة » فيضع تحت أنظارنا صورة امرأة لا شك عندنا فى أنها حقيقية ، وأنه قد التقى بها وجها لوجه ، وأنه انتفع بها كثيرا فى دراسته لتفاصيل خلق المرأة وطباعها . وأنها قد أثرت فى مجرى حياته بعض التأثير ، وعدلت أو أضافت إلى علمه بالحياة الشىء الكثير . ووجه يقينى بكل هذا أن العقاد كاتب قليل الالتجاء إلى الخيال والاختراع . وهو على الرغم من ابتعاده عن الكلام فى شئون نفسه على نحو مباشر . فإننا نستطيع أن نعرف من مجرد مقال له ماذا أكل أمس وماذا شرب وماذا قرأ وماذا يحب من ألوان اللهو وماذا يستظرف من أنواع الحيوان .

ويجىء « المازنى » . وهنا لا أجد أعسر على من البحث عن أثر امرأة بعينها فى حياته . إن المازنى كثير التصوير لنفسه ولحياته وبيته ، ومع ذلك فالويل لمن يؤرخ له . إن قدرة المازنى فى الاختراع ، واختلاط واقعه بخياله قد أسدل حجاباً كثيفاً على وجهه الحقيقى . فأنا فى الحقيقة عاجز عن أن أستخلص من بين رواياته التى تعج بالنساء المدللات ، والأوانس الرشيقات ، امرأة واحدة أستطيع أن أقول إنها

كانت عنده صاحبة الشأن الأول . على أن الذى لا شك فيه عندى ولا نزاع أن هذه المرأة موجودة بالفعل ، ولولاها ما استطاع المازنى أن يكتب قصصا .

ثم يأتى « الزيات » وهو فى أدبنا اليوم ممثل الرومانتيكيين ومترجم أعلامهم . فإذا هو بالطبع صريح فى ذكر ملهمته . فقد قال فى كتابه : « وحى الرسالة » : « عرفت فى باريس عام ١٩٢٥ الآنسة فرناند ابنة أحد القضاة فى محكمة ديجون . كانت طالبة بالسنة الأخيرة من كلية الحقوق . وكان لها بالمستشرق المرحوم ب.كازانوفا أستاذ الأدب العربى فى الكوليج دى فرانس صلة قرابة أو صداقة . فعرفنى إليها لتكون لى فى مدينة النور ما كانت « بياتركس » لدانتى فى جنة الفردوس ... أدينا الامتحان معاً . ثم أرسلت نفسى الحشيمة على هواها ومناها فزرنا معابد الطبيعة فى فنسين وسان كلو وفنتينبلو ، وحججنا محاريب الفن فى اللوفر والأوبرا وفرساى ، وكنت يومئذ أترجم « رفائيل » فكان ما أقرأ وما أكتب وما أسمع وما أرى نسقا عجيبا من الجمال والجلال والفن والشعر والحب والتأمل والاستغراق ، لا يدع للخيال الوثاب مسبحا ولا للنفس الطماحة رغبة . ثم أحم الفراق . فرجعت إلى مصر ولحقت هى بأهلها فى « رويان » . وكان بينى وبينها رسائل مسكية المداد وردية الورق ،

تؤلف كتابا من شعر القلب والعقل ... إلخ » .

وأخيرا « زكى مبارك » وقد كتب كتابا ضخما عن « ليلى المريضة فى العراق » ، وفصولا طوالا عن « مجنون سعاد » . وعلى الرغم من هذا المرض والجنون اللذين دفعاه إلى وضع هذه المؤلفات . فإنى أشك كل الشك فى وجود « ليلى » و « سعاد » . إن وجودهما فى حياته كوجود « دولسينيه » فى حياة « دون كيشوت » ! وفى الحق أن بين الشاعرين لشبها كبيرا : فكلاهما يحب امرأة موهومة وينازل طواحين الهواء على أنها الجبابرة ! وهو هنا خير مثال يعطى لما قدمت من أن مجرد شبح المرأة يكفى لإلهام الأديب .

* * *

هنالك بعد ذلك حالة أخيرة لأدباء أثرت فى تكوين ثقافتهم نساء فضليات . ومع ذلك لم يجر على أقلامهم وصف مسهب لامرأة . من بين هؤلاء « مصطفى عبد الرازق » . إنى موقن بأن هذا القلم الذى يسيل أحيانا رقة وعذوبة لا يمكن أن ينبع وحيه من صحراء الكتب الصفراء وحدها . ومن بين هؤلاء أيضاً « أحمد أمين » عجيبة ! فإنى منذ وقت غير بعيد أتأمل أمره وأسأل نفسى : كيف استطاع هذا الباحث الجاد فى تاريخ الأدب والمؤرخ الجاف للعقلية الإسلامية أن يكون أديباً تنم كتاباته أحياناً عن فهم للقلب والعواطف ؟ وخامرنى

شك فى طبيعة المؤثرات التى طرأت على حياته الذهنية والنفسية . فتحريت منه ، فكشف الأمر لى عن حقيقة أدهشتنى ! نعم . هو أيضاً قد أثرت فى حياته امرأة ، استغفر الله ، بل امرأتان هما سيدتان إنجليزيتان . لن أقص الظروف التى التقى فيها بهما . فالذى يعنينى هنا الآن النتائج التى خرج بها الأديب من هذا اللقاء . لقد أثرت إحداهما فى ذهنه وتفكيره بثقافتها الواسعة ، وأثرت الثانية فى قلبه ومشاعره بجمالها ونبلها . وغادرتاه منذ أمد بعد أن تركتا وصنعتا « عقلا وقلبا » يطلق عليهما اليوم اسم : « أحمد أمين » .

فأدباؤنا المعاصرون لم يشذوا إذن عن الناموس ، فهم أيضاً يدينون للمرأة بما دان به كل شاعر وفنان .

* * *

وبعد ، فأرجو ألا يدهش القارئ لصدور هذا الكلام ممن اعتاد الناس أن يسموه « عدو المرأة » . إن روح الإنصاف فى دمى ، فقد نشأت فى بيئة القضاء ، وكنت أنا نفسى من رجال القضاء قبل أن أخصص حياتى نهائيا للقلم . على أنى أحب أن أسترعى النظر إلى ظاهرة جديرة بالتفكير . إن القارئ قد لحظ من غير شك أن المرأة التى أثرت فى عمل أدبائنا المعاصرين هى فى أغلب الأحوال امرأة أوربية : فرنسية أو إنجليزية أو إسرائيلية أجنبية . ولعله يتساءل :

ـ أين المرأة المصرية ؟ أتراها مشغولة حتى الآن بصنع « التواليت » وقيادة السيارات ولعب الورق فى الحفلات ، بدلا من صنع العقول ، وقيادة القلوب ، واللعب بمصائر الرجال وأقدار المشاهير ؟؟

إن روح الإنصاف تمنعنى من الإسراع بالجواب .

الواقع والخيال

فى الفن

قرأت المقالات العدة التى نشرت أخيراً تعقيباً على ما جاء فى الفصل السابق خاصاً « بالعقاد » وقلة الالتجاء فى « الفن » إلى الخيال والاختراع . فلم أر بينها ما هو جدير بالالتفات غير رد العقاد نفسه ، فهو على عادته يعرف كيف يستخلص العام من الخاص ، ويرتفع بالموضوع إلى قمم الفكر الخالص ، ويترك اللغو من الكلام ليثير القضايا الذهنية التى تمس جوهر الأدب والفن فى كل زمان . فقضية « الواقع والخيال » فى العمل الفنى من المسائل التى لن يفرغ فيها الحديث . فالقول بأن هذا الكاتب يعتمد على الواقع ، وأن ذاك يعتمد على الخيال ، ثم المفاضلة بينهما والموازنة بين الجهد الذى بذله كل منهما ... كل هذا يتكلم فيه الناس منذ أن وجد الفن ، وكل له رأيه . ورأيى فى ذلك يشابه رأى العقاد ، لأن اعتماده على الواقع فى قصة « سارة » يشابه اعتمادى على الواقع فى « عودة الروح » أو فى « يوميات نائب فى الأرياف » . فلا ينتظر منى أنا إذن أن أنتقص من قيمة الأعمال التى تبنى على الواقع .

(تحت المصباح الأخضر)

على أن الحقيقة هى أن العمل الفنى مخلوق جديد و كائن مستقل عن ذلك الواقع الذى يعيشه الفنان ويزعم أنه رواه بحذافيره . لأن العمل الفنى ليس مجرد المادة الأولية من الحوادث الداخلة فيه ، ولا هو ذلك اللحم والدم الذى يتكون منه جسمه . إن كان هذا هو كل شيء لاستطاع كل إنسان أن يكون فناناً ، ولكان فى مقدور أى فرد من البشر أعطى مقداراً من اللحم والدم أن يصنع مخلوقا حياً .

إنى أوافق العقاد على أن خلق العمل الفنى من الواقع أصعب ألف مرة من صنعه من الخيال . إن الرجل الذى يعيش حادثة ثم يستطيع أن يرويها رواية تحدث-فى نفوس الناس عين الأثر الذى أحدثته فيه لهو أعظم فنان .كان « جوته » يقول إن أقدر كاتب لا يرى مما يحيط به من مظاهر الحياة غير واحد فى المائة ، ولا يعى ويفهم مما رأى أكثر من واحد فى المائة ، ولا يستطيع أن ينقل إلى الناس مما وعى وفهم وأحس أكثر من واحد فى المائة .

نعم . وإنى لأطبق هذا القول على حالى فأرى أنى حقاً لم أستطع يوماً أن أنقل إلى الناس غير أصغر صورة وأضعف إحساس لما علق برأسى من صور ، وما مر بنفسى من مشاعر تلك الأعوام التى قضيتها على هذه الأرض .

ولقد قرأت ذات مرة أسطورة قديمة تحكى أن رجلا ساحر الحديث ، كان يفتن أهل قريته كل مساء بروائع الروايات المختلفة ، عن

مغامرات موهومة كان يزعم لهم أنها وقعت له أثناء النهار . وكان يسوق الحديث فى مهارة ويقص الحوادث فى لباقة ويسبغ على كل هذا التمويه أصباغاً لها لون الحقيقة الواقعة فى سهولة ، إلى أن شاءت المصادفة أن تقع له ذات نهار حادثة حقيقية ومغامرة واقعية ، فذهب إلى أهل القرية فى ذلك المساء على عادته وأراد أن يتكلم وأن يصف لهم ما حدث فلم يستطع ، وأرتج عليه ووقع فى صمت مرذول وأطرقوا هم فى أسف طويل !...

والسبب فى ذلك بسيط : إن اختراع حادثة لم تحدث هو أمر من صنع الإنسان ، وعمل من أعمال المخيلة الآدمية ، قد يدل على قوتها ونموها لا أكثر ولا أقل . أما أن تقع حادثة من السماء صنعها الله فنحاول نحن بعد انقضائها أن نعيدها إلى الحياة وأن ننفخ فيها من عندنا روحاً يقيمها من جديد نابضة كما نزلت أول مرة ، فهو عمل عظيم ، لأن القدرة البشرية تحاول فيه أن ترتفع إلى الدنو من القدرة العلوية .

كل فن عظيم هو عملية إحياء ، كل فن عظيم هو « بعث » . كل فن عظيم هو رد الروح إلى مشاعر غرستها السماء فى نفوسنا يوماً .

بغير هذا لعددنا روايات « روكامبول » (وهى مثل بارز للملكة الخيال عند الإنسان) فى مقدمة الأعمال الفنية الكبرى .

لا ... إن الخيال فى العمل الفنى العظيم لا ينبغى أن يكون سوى وسيلة من وسائل إعادة الروح إلى تلك المشاعر الحقيقية التى صنعها

الله وكادت تجرفها اللحظات الجارية لولا يد الفنان .

إن الخيال عند الفنان كقطع الجلد عند الإسكاف ، يرقع به فقط ثغرات الحقيقة الضائعة .

* * *

أخشى أن يساء فهم هذا الكلام ، وأن يستنتج قارئ مما تقدم أن كل عمل الفنان ينحصر فى تدوين الوقائع التى صادفته تدويناً أميناً .

كلا ... إن الفنان ليس محرر تقارير ، إنما هو مقرر عواطف ومشاعر ، وليست الأمانة المطلوبة منه هى فى نقل الحوادث والوقائع ، إنما هى فى نقل الإحساسات الدقيقة والمشاعر الصادقة إلى جميع النفوس . وهو بعد ذلك حر فى اختيار الوسائل والوقائع والطرق والأساليب التى توصله إلى هذه الغاية .

إن قصتى « شهر زاد » مقتبسة عن « ألف ليلة وليلة » فمنذا يقول إن حوادثها وقعت لى ؟ ومع ذلك فليست فيها عاطفة واحدة لم أحسها يوماً ... أو لن أحسها يوماً .

* * *

هنالك مع ذلك أحوال يتقيد فيها الكاتب أو الروائى بالواقع تقيداً وثيقاً ويكاد عمله لا يخرج عن مجرد سرد حادثة سنحت له فى الحياة . فهل لنا عندئذ أن نجرد عمله من القيمة الفنية ؟ لا . إن السرد وعدمه لا شأن له فى الأمر . إنما المعول عليه فى الفن أن يستطيع الروائى ، وهو

يسرد الحادث كما وقع ، كشف الستار قليلا عن تلك القوانين الخفية والحقائق الثابتة التى تحرك الأشياء والكائنات . وهنا الفــرق بين الصحفى والفنان . إن الصحفى يروى لك حادثاً وقع فلا ترى فى الأمر غير مجرد الحادث . أما الفنان فيقص عين الحادث ، فإذا أنت قد غمرت فى جو آخر ، وإذا الحادث قد اتخذ وجها آخر ، وإذا الحادث قد انفرجت خلفه أشياء لم تكن بادية للعين العابرة ...

إن يد الفنان كيد الساحر تلمس كرة البلور فتبقى كرة البلور كما هى ، ولكنك ترى فيها وتقرأ مناظر وأشياء لم تكن فيها من قبل ...

* * *

تأملات

حول تشجيع الناشئين

لم أقرأ كتباً هذا الأسبوع . ولكنى قرأت طائفة من رسائل ومقالات وقطع أدبية ، بعث بها إلى أدباء مجهولون ، يطمع بعضهم فى النشر ، ولا يرجو البعض الآخر إلا أن أطالع ما سطر . فطالعت . وهذا واجب جديد ، أفرضه اليوم على نفسى . فلقد رأيت عدداً كبيراً من الشباب يتجه إلى الأدب فى أمل ، عارضاً مواهبه على المشتغلين به ، كما تعرض على الصائغ الحلى والجواهر . فأيقنت أن عملى يجب أن يتسع مداه ، وأن حانوتى القديم لا ينبغى أن يقتصر على الصياغة والصناعة ، بل يتعداهما إلى السعى للاستكشاف فى البحار العميقة ، واستخراج اللآلئ المخبوءة ، وتعهدها بالصقل والتهذيب ، وعرضها على الناس لامعة براقة .

* * *

وفرغت من القراءة ، وقد طرحت أكثر ما ورد من مخطوطات ، مقتنعاً بأن من العبث أن يمضى أصحابها فى هذا الطريق ، إن سمة الأديب وصفة الكاتب لا تخفى على النظرة الخبيرة . هؤلاء قد سقطوا

من الحساب ، وخرجوا من موضوع الحديث . أما الذين أكرس من أجلهم هذا الفصل ، فهم أولئك القلائل الذين استرعوا التفاتى وانتزعوا إعجابى ، وأثبتوا لى أن الطبيعة قد ألقت فى نفوسهم البذرة ، وتحت يدى حتى الآن مخطوطاتهم أجيل فيها البصر ، وأنا مغتبط اغتباط الناظر إلى زهر البنفسج يتفتح رويداً رويداً فى مطلع الربيع .

أدهشنى من أحدهم حوار قصير يقطر ظرفاً ودعابة وخفة روح ، مع فهم غريزى لما ينبغى أن يكون عليه هذا اللون الأدبى من سرعة فى إدارة الحديث حتى لا يثقل ، وحسن اختيار فى الجواب حتى لا يقع فى اللغو ، وإلهام يشرق بالعبارات الموفقة بين سطر وسطر . كما أعجبنى من آخر عمل أدبى مزج فيه الحوار بالقصة . وهو لا يملك ما عند صاحبه من هبة اللباقة . غير أن عنده روحاً نزاعا إلى التفكير الفلسفى يسوقه على نحو يترك فى النفس أثراً . ثم قرأت لثالث أفكاراً تنم عن فهم واستفادة مما يطالع وملاحظة لما يشاهد . ولكن ... لا شىء غير ذلك . هنا ينبغى أن أبادر فأقول إن هؤلاء كلهم بالضرورة لم يملكوا بعد الشىء الوحيد الذى يجعل الكاتب كاتباً . إنى أستطيع أن أنشر لهم هذه الكتابات الآن إذا أرادوا . لكن ... أبهذا يتم التشجيع الواجب لهم ؟ أبا لنشر المبكر والقطف قبل النضج نسدى إلى زهر الربيع الخير ونبدى له التقدير ؟ ما أكثر الناس الذين يحملون فى رؤوسهم أفكاراً عظيمة ، وفى نفوسهم مشاعر قوية ، وفى أفواههم

دعابات ظريفة وكلمات طريفة ! غير أن كل هذا لا يصنع كاتباً .

ما هو الكاتب إذاً ؟

هو الخلاق الذى ينفخ فى كل هذه الأفكار والمشاعر والكلمات ، فإذا هى قد استوت على أقدامها حية تسعى فى حياة مستقلة . هو الصناع الذى ينسج رداء رائعاً لشؤون الفكر ومخلوقات الأوهام ، فتبدو هذه المعنويات للناس فى شبه أجساد مادية لا تمحوها الأيام .

هو أخيراً صاحب الأسلوب ، ولست أعنى بالأسلوب (اللغة المنمقة) إنما الأسلوب هو الطريقة التى يبتكرها الكاتب أو الفنان لاقتناص أدق المشاعر وأرفع الأفكار . الأسلوب هو وحده الذى يشقى فى سبيله الكاتب والفنان طوال الأعوام . إن كل كلام قد قيل ، وكل عاطفة قد وصفت ، وكل فكرة قد وضعت . ما بقى للفن جديد منذ غابر الأزمان ، ومع ذلك فإن الفن يولد من جديد فى كل زمان . لأن الفن ليس فى ذات الكلام أو الفكرة أو العاطفة ، إنما هو فى ألوان الأثواب التى ترتديها هذه الأشياء على مدى الأحقاب . إن الفن هو الأسلوب ، والأسلوب هو الفنان ...

دعى مرة العازف الموسيقى « كريسلر » إلى سماع صبى قيل إنه نبغ فى العزف على « الكمنجة » نبوغا إلهيا يعد فى العجائب والخوارق . فأصغى « كريسلر » ملياً إلى قطعة عميقة عسيرة من قطع « بيتهوفن » يؤديها هذا الصبى ، فما تمالك أن صاح إعجابا :

— نعم ، إن هذا الصبى قد سما بى إلى قمم رفيعة من الإحساسات البشرية . وإنه ليدهشنى من صبى قليل التجارب فى مسائل القلب والشعور ، أن يستطيع التعبير بهذا العمق عن أدق خوالج القلب والنفس !

فسله أحدهم :

— إذاً فهو موسيقى عظيم .

فأجاب كريسلر :

— لا .

— عجبا ! ماذا ينقصه ؟

فأجاب كريسلر فى هدوء :

— الأسلوب .

كلمة لا تدهشنى ولا تدهش كل من عرف « كريسلر » وأقرانه من الموسيقيين الناضجين ، وتتبع أساليب تفاسيرهم لمختلف الآثار الكبرى . إن عجائب الطبيعة وحدها لا تصنع الفنان . إنما الفنان عمل متصل وصبر طويل فى سبيل الوصول إلى الأسلوب . حقيقة أن الفنان هو شخص موهوب ، ولكن هبة السماء هى مبدأ الطريق . لا بد للمغنى من صوت جميل ، ولكن الصوت الجميل وحده ليس هو المغنى .

* * *

لقد تبين لى إذاً أن هبة السماء لا تعوز أصحاب هذه المخطوطات التى استبقيتها ، ولقد تبين لى أيضاً أنهم لا يملكون غير هبة السماء ، وأنهم لم يبذلوا بعد من الجهد فى سبيل هذا الفن العسير غير ما طالعوه من شتات المؤلفات فى الأدب العربى الحديث . وإنى لألمح أثر كتبى بالذات فى هذه المخطوطات ، فهل يبيح لى موقفهم هذا أن أعلن أنهم كتاب ؟ إن الإنصاف يقتضينى أن أعترف بأن ما كتبوه لا يقل شأنا عما ينشره كثير من الصحف والمجلات لكثير من حملة الأقلام . لكن المسألة عندى أجل من أن يقضى فيها بهذه السرعة ، والفن أقدس عندى من أن يستهان بشأنه . ينبغى أن أسائل نفسى أو أسأل هؤلاء الشبان هذا السؤال أولا :

ـــ ما هى بغيتكم من كتابة ما كتبتم ؟ وما الدافع الذى حملكم على الإمساك بالقلم ؟ أتريدون تكريس حياتكم للفن ؟ أم أنها هواية اللحظة ونزعة من نزعات اللهو قد سنحت ؟

بل ينبغى أن أواجههم بذلك السؤال القاطع الذى ألقاه الشاعر « ريتر ماريا ريكله » على أحد تلاميذه فى رد على رسالة :

« استيقظ فى هدوء الليل والناس نيام ، وكل شىء فى ضميرك ساكن ، وسل نفسك هذا السؤال : هل إذا حيل بينى وبين الكتابة أموت ؟ فإذا أجابتك نفسك أن : نعم ، فامض فى طريق الفن ولا تخش شيئاً .

* * *

أنا أيضا ألقى على من بعث إلى بكتاباته هذا القول . فإن كان الجواب :

ـ لا ، أنا لن أموت ، ولن أتخذ الفن هدفا فى حياتى ، إنما هو شىء جميل أود أن أحيط نفسى به ، وهو حلية أحب أن أقتنيها ، وهو ملهاة لا بأس من النزوع إليها فى أوقات الضيق والفراغ . وإنى أردت أن تعيننى على نشر ما كتبت لأدخل السرور على نفسى .

عند ذاك أجيب :

ـ لك ما طلبت .

وأدفع للنشر بما بعث ، وتنقطع بذلك الصلة بينى وبينه ، فلا شأن له بى ، ولا بالفن إلا من حيث هو قارئ وهاو .

أما ذلك الذى يقول لى :

ـ نعم . إذا لم أتخذ الفن غاية فإنى أموت .

فهذا أجيبه :

ـ ما دامت لك هبة السماء فإنى أبذل لك دمى حتى تمنح هبة الفن .

* * *

ولكن شروطى ثقيلة . والوفاء بها عسير . ومن أراد أن يسير معى ، فليعلم أن الطريق شائك والأقدام عارية . وأن أول ما أحرمه عليه النشر قبل الأوان . والأوان هو مرور عشرة أعوام بالأقل على

اليوم الذى تظهر فيه الرغبة المحرقة فى النشر . إنه صيام كصيام فقراء الهنود . وصلاة فى معبد الفن طويلة ، قوامهـا التأمـل والمطالعـة ومشاهدة ما يزين جدران المعبد من آثار منظورة والإصغاء إلى ألحان الأرغن ، وهى تردد الآثار غير المنظورة ، وحرق البخـور مـن مخطوطات لم تكتمل النضج وأوراق سطرت فى الخفاء بغير رجاء .

* * *

ومع ذلك ... إن الشك يخامرنى : أتُرانى أقسو فى غير موضع القسوة . أترانا نغلو إذ نفرض على غيرنا أن يكابد مثل ما كابدنا ، وقد تغير الزمن وتبدلت الظروف ، وربما كابدنا نحن لنوفر على هؤلاء بعض العناء ، أين هو السبيل الحقيقى لتشجيع النـاشئين ؟ أهـو بإظهارهم قبل الإعداد أم بإعدادهم قبل الظهور ؟؟

* * *

من أدب الجاحظ

كنت أقرأ للجاحظ منذ أعوام فألفيت عنده كلاما كالحوار التمثيلى لم أر مثله فى الأغانى . وقد بدا لى أن أنقل هذا الحوار على شكل « منظر صغير » دون تغيير فى الألفاظ والمعانى . إنما سمحت لنفسى ببعض الحذف وبعض الملاءمة بين وضع الحوار الأصلى والوضع المسرحى بغير أن أمس جوهر الموضوع . حتى يبقى الفضل للجاحظ وللأدب العربى . والحق أنه حوار يذكر بألفريد دى موسيه فى « كوميدياته وأمثاله » . ولعل عناصر كل نوع من أنواع الأدب والفكر موجودة عند العرب . لكنها مجرد عناصر . فلماذا لا نستخرج هذه العناصر ونفصلها ونبوبها ؟ لماذا لا نضع مثلا كل حوار من هذا الطراز فى الشكل التمثيلى على قدر المستطاع . ونجمعه على أنه نماذج تمثيلية من الأدب العربى أو على أنه إعادة الشباب إلى الأدب القديم بإلباسه حلة جديدة دون تغيير للب ؟ إذا صح هذا فإن مجال العمل فى الأدب العربى القديم متسع . ولن تفرغ منه أجيال قادمة برمتها . وهذا هو حوار الجاحظ :

الفراق

(المنظر : باب دار كبيرة ، جارية كأنها قضيب يتثنى ، وهى والهة حيرى واقفة فى الدهليز . وجائية تخطر فى مشيتها . يدنو منها شيخ ويسلم عليها فترد السلام بلسان منكسر وقلب حزين) .

الشيخ : يا سيدتى ! إنى شيخ غريب أصابنى عطش ، فأمرى لى بشربة من ماء تؤجرى .

الجارية : إليك عنى يا شيخ ، فإنى مشغولة عن سقى الماء وادخار الأجر !

الشيخ : يا سيدتى لأية علة ؟

الجارية : (**بعد تردد**) لأنى عاشقة من لا ينصفنى ، وأريد من لا يريدنى !

الشيخ : (**يتأملها**) يا سيدتى ، هل على بسيط الأرض من تريدينه ولا يريدك ؟!

الجارية : إنه لعمرى على ذلك الفضل الذى ركب الله فيه من الجمال والدلال .

الشيخ : ياسيدتى ، فما وقوفك فى الدهليز ؟

الجارية : هو طريقه ، وهذا أوان اجتيازه .

الشيخ : يا سيدتى ، هل اجتمعتما فى خلوة فى وقت من الأوقات ، أم حب مستحدث ؟

الجارية : **(تتنفس الصعداء وتسيل دموعها على خديها كطل على ورد وتنشىء تقول) :**

وكنا كغصنى بانة وسط روضة
نشم جنا اللذات فى عيشة رغد
فأفرد هذا الغصن من ذاك قاطع
فيا من رأى فرداً يحن إلى فرد ؟

الشيخ : يا هذه ، ما بلغ من عشقك هذا الفتى ؟

الجارية : أرى الشمس على حائطه أحسن منها على حائط غيره ، وربما أراه بغتة فأبهت وتهرب الروح من جسدى ، وأبقى الأسبوع والأسبوعين بغير عقل .

الشيخ : عزيز على ، وأنت على ما بك من من الضنى وشغل القلب بالهوى وانحلال الجسم وضعف القوى ، ما أرى بك من صفاء اللون ورقة البشرة . فكيف لو لم يكن بك من الهوى شىء ؟ أراك كنت مفتنة فى أرض البصيرة !

الجارية : كنت والله يا شيخ قبل محنتى لهذا الغلام تحفة الدلال والجمال والكمال . ولقد فتنت جميع ملوك البصرة وفتننى

هذا الغلام

الشيخ : يا هذه ، وما الذى فرق بينكما ؟

الجارية : نوائب الدهر وأوابد الحدثان . ولحديثى وحديثه شأن من الشأن . وأنبئك أمرى : إنى كنت اقتصدت فى بعض أيام النيروز ، فأمرت فزين لى وله مجلس بأنواع الفرش وأوانى الذهب ، ونضدنا الرياحين والشقائق والمنثور وأنـواع البهار . وكنت دعوت لحبيبى عدة من متظرفات البصرة فيهن من الجوارى جارية « شهران » وكان شراؤها عليه من مدينة عمان ثمانمائة ألف درهم ، وكانت الجارية قد ولعت بى ، وكانت أول من أجابت الدعوة وجاءتنى منهن . فلما حصلت عندى رمت بنفسها على تقطعنى عضا وقرصا ... فبينا نحن كذلك إذ دخل على حبيبى . فلما نظر إلينا اشمأز لذلك ، وصدف عنى وعنها صدوف المهرة العربية إذا سمعت صلاصل اللجم ، وعض على أنامله وولى خارجا . فأنـا يـا شيـخ منـذ ثـلاث سنين أسل سخيمته ، وأستعطفه فلا ينظر إلىّ بعين ، ولا يكتب إلى بحرف ، ولا يكلم لى رسولا .

الشيخ : يا هذه ، أفمن العرب هو أم من العجم ؟

الجارية : هو من جلة ملوك البصرة .

الشيخ : من أولاد نيابها أو من أولاد تجارها ؟

الجارية : من عظيم ملوكها .

الشيخ : أشيخ هو أم شاب ؟

الجارية : (تنظر إليه شزراً) : إنك لأحمق . أقول هو مثل القمر ليلة البدر ، أمرد ، أجرد ، وطرة رقعاء كحنك الغراب تعلوه شقرة فى بياض ، عطر اللباس ، ضارب بالسيف ، طاعن بالرمح ، لاعب بالنرد والشطرنج ، ضارب بالعود والطنبور ، يغنى وينقر على أعدل وزن ، لا يعيبه شىء إلا انحرافه عنى لا نقصاً لى منه بل حقداً لما رآنى عليه .

الشيخ : يا هذه ، وكيف صبرك عنه ؟

الجارية : حالى معه كحال القائل :

أمـا النهار فـمستهام والـه
وجفـون عينـى ساجفـات تدمـع
والليـل قـد أرعـى النجـوم مفكـرا
حتـى الصبـاح ومقلتـى لا تهجـع
كيف اصطبارى عـن غـزال شادن
فى لحظ عينيـه سهـام تصرع

الشيخ : يا سيدتى ، ما اسمه وأين يكون ؟

الجارية : تصنع به ماذا ؟

الشيخ : أجهد فى لقائه وأتعرف الفضل بينكما فى الحال .

الجارية : على شريطة .

الشيخ : وما هى ؟

الجارية : تلقانا إذا لقيته وتحمل لنا إليه رقعة .

الشيخ : لا أكره ذاك .

الجارية : هو ضمرة بن المغيرة بن المهلب بن أبى صفرة . يكنى بأبى شجاع ، وقصره فى المربد الأعلى . وهو أشهر من أن يخفى . (**تصيح فى الدار** :) يا جوارى دواة وقرطاساً ...

الشيخ : يا سيدتى وجب حقك على . ولزمتك حرمتى لطول وقوفى عليك ، وكنت قد سألت شربة ماء ...

الجارية : أستغفر الله ! ما فهمنا عنك (**تصيح فى الدار**) : أخرجوا إلينا شراباً من ماء وغير ماء .

(تقبل وصيفتان تحملان الدواة والقرطاس فتشمر الجارية عن ساعدين كأنهما طومارا فضة ثم تحمل القلم وتكتب الرقعة . ثم تقبل ثلاثون وصيفة بأيدين الكؤوس والجامات والأقداح مملوءة ماء وثلجا وفقاعا وشرابا ... فيشرب الشيخ ..)

الشيخ : يا سيدتى . مع قدرتك على هذا من استواء الحال وكثرة

الخدم والعبيد والجوارى ، فلم لا تأمرين إحدى الجوارى أن تقف مراعية للغلام حتى إذا مر أعلمتك فتخرجين إليه . ؟.

الجارية : لا تغلط يا شيخ !

الشيخ : (**يفهم مرادها ويطرق خجلا من هفوته**) !

انتهى المنظر . وكان فى مقدورى أن أجعل منه فصلا كبيراً . لكننى آثرت أن أبقيه على أصله . لأن المسألة عندى : هل نظهر العناصر مع بقائها على شكلها . أو نتصرف فيها ونستعملها كما نشاء ؟

* * *

فى جو الأدب العربى القديم

كنت أعيش فى جو الأدب العربى القديم ، يوم دعيت إلى الاشتراك فى الاحتفال الذى أقامه الشعراء والأدباء المعاصرون بدار الأوبرا الملكية يوم ٢٤ يناير ١٩٣٨ ابتهاجاً بالزفاف الملكى . ولقد كان على يومئذ أن أضع مسرحية صغيرة تجعل إطاراً لما يلقى من شعر ونثر . فكتبت هذه القطعة :

مجالى الشعر والأدب

فى عصر الرشيد

المنظر الأول

(ترتفع الستار الأولى عن هارون الرشيد فى بهوه ... وهو جالس وإلى جانبه وزيره جعفر البرمكــى ... وعند أقدامه المنجم ابن نوبخت .. والشمع يحدق به على قضب المناور ... والخدم فوق فرشه وقوف) .

الرشيد : (لمسرور الحاجب) من يحضرك من شعراء الكوفة ؟

مسرور : مصعب والرقاشى وأبو نواس .

الرشيد : ادع لنا أبا نواس .

مسرور : (بالباب يهمس) أبا نواس ! إنها ليلة نثرت لك فيها السعادة الأرق بين أجفان أمير المؤمنين . إن يكتب الله لك الإحسان لديه ، تكن ليلة تعرس فى صباحها بالغنى .

أبو نواس : (همساً) بشرك الله بالخير .

مسرور : (يوجه الشاعر إلى الرشيد هامسا فى أذنه) سلم .

أبو نواس : السلام عليك يا أمير المؤمنين .

الرشيد : وعليك السلام .

أبو نواس : (بعد لحظة تردد) يا أمير المؤمنين . نور كرمك وبهاء مجدك مجيران لمن نظر إليهما . تسألنى فأجيب ، أم أبتدئ فأصيب بيمن أمير المؤمنين وفضله ؟

جعفر : (للرشيد همسا) والله يا أمير المؤمنين إنى لأرجو الليلة أن يكون ممتعا ..

الرشيد : أرجو ، ادن يا أبا نواس ، أسمعنى .

أبو نواس : (ينشد) :

وإلى أبى الأمناء هرون الذى
يحيا بصوب سمائه الإنسان
ملك تصور فى القلوب مثاله
فكأنما لم يخل منه مكان

ماتنطوى عنه القلوب بفجرة
إلا يكلمه بها اللحظان
فيظل لاستنبائه وكأنه
عين على ما غيب الكتمان
هرون ألفنا ائتلاف مودة
ماتت لها الأحقاد والأضغان
وأغر ينفرج الدجى عن وجهه
عدل السياسة حبه إيمان

الرشيد : (معجبا) لله در شعرائنا ، ما أحكم صناعتهم . مسرور !

مسرور : (بين يديه) لبيك مولاى .

الرشيد : أعطه ألف دينار :

أبو نواس : (فى دهش وفرح) ألف دينار . إنها لليلة السعد ورب الكعبة .

مسرور : (وهو يلقي إليه بكيس الدنانير يهمس) ألم أبشرك بالخير .

أبو نواس : (عند أقدام الرشيد) مولاى . ليس بمستغرب أن يزدهر الشعر فى عصرك وأنت على هذا الجود ... إنك لا تعطى شاعراً أنشد بضعة أبيات . إنما أنت تنثر الندى

في حديقة الشعر لتنبت أجمل الزهر . وستذهب الدنانير ويذهب الشاعر ولكن آثار يدك هي الباقية .

جعفر : (همسا) أحسنت يا أبا نواس .

أبو نواس : مولاى : إنك تجزل فى العطاء للشعر لا للشاعر . وستذكرك الأيام ، ما بقى على الأيام شعر .

هرون : حسبى مدحا . حسبى .

أبو نواس : لقد أجزلت فى العطية فدعنى أجزل فى المدح .

الرشيد : أعطيك ذهبا فتعطينى كلاما .

أبو نواس : وأينا الرابح يا أمير المؤمنين ؟

الرشيد : من ؟

أبو نواس : ذهبك هذا سيذهب . أما كلامى فيك فباق .

الرشيد : صدقت . غير أنى أعجب كيف أن حديقة الشعر المخلدة لا يرويها غير الذهب الذاهب .

أبو نواس : تلك حكمة المولى الخالد يا أمير المؤمنين . إن البقاء ممتزج بالفناء كما تمتزج الروح بالجسد .

الرشيد : ما قولك يا جعفر ، إن هؤلاء الشعراء يجدون دائماً لكل مسألة جوابا .

جعفر : لا غرو يا أمير المؤمنين . إنهم هم البيان . وهم اللسان فى كل دولة وكل زمان .

الرشيد : لسان يطول ويقصر كلما قصرت يد الملوك وطالت .

أبو نواس : (يهز كيس الدنانير) لسان هو فى عصرك الزاهر أطول ما يكون لسانا ..

الرشيد : أخبرنى يا أبو نواس . أحقاً أنكم معشر الشعراء والأدباء تمدحوننا طمعاً فى المال والنوال ؟

أبو نواس : معاذ الله ! إنما نمتدحكم لوجه الله !

الرشيد : فلو بخلنا وغللنا أيدينا ...

أبو نواس : (ينظر إلى الكيس) كلا بحقك لا تفعل يا أمير المؤمنين .

الرشيد : (باسماً) أتقولون فينا مع ذلك عين القول ؟

أبو نواس : (يهز الكيس) لم هذه الأسئلة يا أمير المؤمنين .!

الرشيد : أجب .

أبو نواس : (ناظرا إلى الكيس) إنك يا مولاى لتضعنى موضع الحرج ..

الرشيد : أرأيت كيف أن النوال هو الذى ..

أبو نواس : أجل يا مولاى . هو الذى ... لكن ليس هو دائما الذى ...

الرشيد : أوضح .

أبو نواس : إنكم معشر الملوك تستثيرون فينا أحيانا بأعمالكم

وشمائلكم جميل الثناء . فأنتم لنا أحيانا فى ذاتكم منبع وحى : نستلهمكم على الرغم منا ونقول فيكم أجود الشعر دون أن ننتظر شكراً ولا أجراً .

الرشيد : وكيف لنا علم ذلك ؟

أبو نواس : يا مولاى ، الشعر الحق أبلج كالحق .

جعفر : (همسا) مرحى .. مرحى .

الرشيد : أتصدق هذا الشاعر يا جعفر ؟

جعفر : إن الشعراء قد يكذبون يا أمير المؤمنين ، لكن الشعر ...

الرشيد : ماذا ؟

جعفر : صدق الشعر دائما وإن كذب الشعراء .

الرشيد : إى والله يا جعفر .

أبو نواس : أجل .. دعكم منا يا أمير المؤمنين . فنحن فانون ، فينا ضعف الفانين ، أما شعرنا ...

الرشيد : نعم ، نعم . لقد قلت كلمة يا أبا نواس أعطيك عليها ألف دينار أخرى .

أبو نواس : (يمد يده سريعا) أطال الله بقاء أمير المؤمنين . (ثم يستدرك فيسحب يده ويسأل) أية كلمة يا أمير المؤمنين ؟

الرشيد : (كالمتأمل الحالم) إلى إنما أنثر الندى فى حديقة الشعر .

وسيذهب المال والشعراء . أما حديقة الشعر فباقية .
لكنى أسائل نفسى :
« أحقا سوف تبقى حديقة شعرنا على الدهور ؟ » من ذا يطالع لى الغيب فيخبرنى ... (**ينظر إلى منجمه تحت قدميه**) أين منجمى ابن نوبخت ؟

المنجم : لبيك مولاى .

الرشيد : آأنت نائم .. آرق أنا وأنت تنام ؟

المنجم : بضاعتى الغيب يا أمير المؤمنين . والغيب نائم حتى توقظة الأيام .

الرشيد : ها أنذا أوقظك .

المنجم : وها أنذا أجيب .

الرشيد : خبرنى : هل هذا الشعر الزاهر فى عصرى سيبقى على الدهر أو أنه سيغور كالنجم الآفل فى كبد الأحقاب المظلمة ؟

المنجم : (**يطرق مليا ثم يرفع بصره إلى السماء لحظة ثم يقول**) سيبقى .

الرشيد : سيبقى ؟

المنجم : (**يتأمل السماء كمن يقرأ كتابا**) إنه حى .

الرشيد : أتراه ؟

المنجم : إنه حى .

الرشيد : شعرنا ؟... غرس أيدينا ؟..

أبو نواس : (يهز أكياس الذهب) أرأيت يا مولاى . دنانيرك لم تضع هباء .

الرشيد : ماذا ترى ؟ خبرنا أيها المنجم ماذا ترى ؟

المنجم : أرى ... أرى شعراء فى زى غريب ، ينشدون شعرا عربيا مبينا كأجود ما يكون الشعر فى عصرك الزاهر ..

جعفر : أيمكن أن يكون للشعر العربى دولة زاهرة كدولته فى عصر أمير المؤمنين ؟

المنجم : لقد غرسوا من غرسه وبنوا على أسسه .

أبو نواس : أو عندهم شعراء مثل أبى نواس ؟

المنجم : عندهم شعراء فحول وأدباء ذوو عقول .

الرشيد : فى أى مملكة يا ابن نوبخت ما ترى وفى أى أرض ؟

المنجم : يغلب على ظنى أنها أرض مصر .

الرشيد : (كالمخاطب لنفسه) أرض مصر ؟..

المنجم : إنى أرى الأهرام وأبا الهول ...

الرشيد : أو مازالت من أعمالنا ؟

المنجم : لست أراها من أعمال دولة من الدول . لكنها مملكة يحكمها ملك شاب من أهلها ، يتكلم العربية ويكتبها

ويحبه الناس . وإنى أرى الليلة ..

الرشيد : ماذا ترى ؟

المنجم : (يطيل النظر إلى الأفق) أرى جمعاً حاشداً قام فيه أكابر شعرائهم وفطاحل أدبائهم يحتفلون بعرس مليكهم على فريدة من أهل البلاد لا أشك فى أنها فريدة عصرها .

الرشيد : وى ... وى ... أكل هذا تراه الساعة ؟

المنجم : إنى أقرأ الغيب كما يقرأ الناس الكتب .

الرشيد : وكيف نعرف أنك حقاً ترى ما تقول ؟

أبو نواس: إن كان صادقا يا أمير المؤمنين فلينشد لنا بيتا واحدا من شعر هؤلاء الفحول الذين يراهم الآن فى العرس .

الرشيد : نعم . أسمعنا يا ابن نوبخت شيئا من شعرهم إن كنت صادقا .

المنجم : إنى أفعل أكثر من هذا يا مولاى إن أذنت لى ..

الرشيد : ماذا تفعل .؟

المنجم : أريك ما أراه . وأرى كذلك إن أذنت لى هذا الشاعر المتشكك حتى يصدق وأرى كل من حضر مجلسك الساعة ..

الرشيد : (فى عجب يهتز فى مقعده) أو تفعل ؟

أبو نواس: إن فعل ، ورأيت شاعراً واحداً من شعرائهم رأى العين وسمعت بيتاً واحداً من شعرهم سمع الأذن فله إن أذنت

يا أمير المؤمنين ألف دينار من مالى هذا رزقاً حلالا .

الرشيد : لقد أذنت فافعل أيها المنجم .

المنجم : (يشير إلى الستار الخلفى) انظر يا أمير المؤمنين إلى هذا الستار وحدق فيه مليا . وأنتم أيها الحاضرون انظروا جميعا ، فإنه سينفرج عن غيب بعيد بعيد ... وسترون خلفه عالما سوف يأتى بعد قرون ...

يرفع الستار الخلفى
عن المنظر الثانى

المنظر الثانى

يرفع الستار الخلفى عن الشعراء والخطباء الذيـن سيلقون كلماتهم فى الاحتفال .

الرشيد : (فى همس) عجبا .. عجبا .. ما هؤلاء القوم ؟ وما هذا الزى ؟ أترى يا جعفر .؟ لا أحسبهم من الروم ولا من الفرنجة ولا من الهند ولا من السند . فإنى لم أر مثل هذا الشيء الأحمر فوق رؤوس أناس من بقيـة الأمم والأجناس .

جعفر : (همساً ، مأخوذاً) نعم يا أمير المؤمنين . إنه لعجب .

أبو نواس : (همساً لنفسه) أهؤلاء شعراؤهم وأدباؤهم .

(كلمة وزير المعارف « بهى الدين بركات باشا »)

الرشيد : (**للمنجم بعد فراغ كلمة الوزير**) كلام عـربى جميل . من هذا يا ابن نوبخت ؟

المنجم : هذا وزير من وزرائهم .

جعفر : أو عندهم وزراء عديدون ؟

المنجم : عندهم لكل شأن من شئون الدولة وزير ، وهذا وزير مختص بشئون العلم والأدب والفن ...

أبو نواس : أصبح للشعراء والأدباء وزير ! لا بأس . لا بأس ..

(يتقدم « الجارم » ويلقى قصيدته)

الرشيد : (يصفق مع المصفقين) إنه والله نظم جيد ، لم لا تصفق استحسانا يا أبا نواس ؟

أبو نواس : فليسمعنا شيئا فى الغزل .

جعفر : أو تحسبه واقفا ينشدنا نحن . ألا ترى الجمع الذى يصغى إليه ؟؟

أبو نواس : ترى سيأمرون له بكم دينار ؟

(يتقدم « العقاد » ويلقى كلمته)

الرشيد : (يصفق مع المصفقين) هذا والله نثر صاف ! ما رأيك يا أبا نواس ؟.

أبو نواس : رأيى أن هذا كاتب جبار (يشير بيده إلى طوله) لو تركوه على عشرة رجال لأكلهم .

المنجم : ومع ذلك فهو ليس بجبار الصحة كما تظن . فهو إن جار يوماً فى طعامه مرض ، وإن خلص إليه هواء من ثقب الباب لزم الفراش ، وإن لم ينم عقب الغذاء تعسر الهضم ، وإن نسى الدواء تعب الكبد ...

أنو نواس : ترى الرجل الطويل تفر منه .

وفى أثوابه حمل ضعيف

(يتقدم « مطران » ويلقى قصيدته)

الرشيد : **(يصفق)** شعر رقيق .

أبو نواس : أرق من جسمه النحيل . هذا الشاعر لو نفخ فيه نافخ لطار . أهو يأكل ويشرب مثل بقية الناس أم يصوم الليل والنهار .

المنجم : على النقيض . ما من وليمة إلا وجدته فيها .

أبو نواس : لله فى خلقه شئون .

(يتقدم « أحمد أمين » ويلقى كلمته)

الرشيد : **(يصفق)** ذهن مشرق ، كإشراق الشمس فى ضحى النهار .

أبو نواس : مثل هذا كثير فى « ضحى الإسلام » !

(يتقدم « الهراوى » ويلقى قصيدته)

الرشيد : **(يصفق)** ما قولك فى هذا الشاعر الفحل ؟

أبو نواس : **(يتأمل جسمه)** حقيقة فحل .

الرشيد : تعنى فى شعره .؟

أبو نواس : سبحان الله . وهل عنيت شيئاً آخر . اللهم ادرأ عنا الزلل وسلمنا من عثار اللسان .

(يتقدم « المازنى » ويلقى كلمته)

الرشيد : **(يصفق)** روح خفيف . لو كان فى عصرى لأغريت

به جارية ذات ظرف ودل ، ونظرت إليهما يتداعبان ويتلاعبان فتوقعه هى فى شراك لحاظها ...

أبو نواس : ويوقعها هو فى « خيوط العنكبوت » .

(يتقدم « على محمود طه » ويلقى قصيدته)

الرشيد : (**يصفق**) شعر رصين ممتلئ .

أبو نواس : (**يشير بيديه**) لشاعر ممتلئ .

الرشيد : تعنى فى شعره .

أبو نواس : المعنى فى بطن الشاعر .

(يتقدم « البشرى » ويلقى كلمته)

الرشيد : (**يصفق**) نثر جزل . يخيل إلى أن هذا الكاتب قد اختطف من عصرنا اختطافا ليوضع بين هؤلاء الناس فى هذا الحفل .

أبو نواس : هى الحقيقة يا مولاى . انظر إلى هذا الشىء فوق رأسه . إنه أقرب إلى عمامتنا وهذه الثياب على بدنه أشبه بثيابنا . ما يمنعنا إذن من أن نختطفه ونرده إلى عصرنا .. إن هو إلا بضاعتنا ردت إلينا .

المنجم : لقد فرغ الخطباء يا مولاى . وسينفض الحفل عما قليل .

الرشيد : اللهم إنا قد رأينا الليلة عجبا . اللهم اشهد أن هذا العصر

الذى نرى فيه ، من الشعراء والأدباء جهابذة وأعلاما لا يقلون فى المرتبة عن شعرائنا وأدبائنا .. وإن كره أبو نواس .. عجباً أين أبو نواس ؟

المنجم : هرب الخبيث بالدنانير حتى لا يؤدى إلى الرهان .

الرشيد : إنى أؤديه عنه وأزيد عليه . (يصغى) ما هذه الأصوات ؟

المنجم : تلك أصوات الشعب ترتفع هاتفة بحياة مليكها المحبوب .

(يعلو الهتاف وينزل الستار)

التمثيل

ومسئولية الدولة والأدباء

أحقيقة تقع التبعة فى خلو آدابنا من التمثيل على عاتق الأدباء والدولة ؟ مسألة نظرت فيها عقب انتهائى من قراءة مقال للدكتور طه حسين عن الأدب العربى والتمثيل(1) . ومن الإنصاف أن أعترف أولا أنى فكرت فى هذه المسألة ثم كتبت هذا الرد بعد تناول القهوة فى ختام الغداء والمعدة مليئة والحر شديد . وقد تركت نفسى تسبح فى تأمل هادئ أشبه بإغفاءة الظهيرة . فهل يعتمد على مثل تلك النفس الهائمة الحالمة إذا ارتدت إلى بعد قليل تهتف قائلة : لا مسئولية على الدولة ولا مسئولية على الأدباء .

أما أن الأدباء لم يقصروا فى إمداد المسرح بثمرات أفكارهم فهو دفاع من الأدباء مقبول وحجتهم فيه بسيطة : أنه لا يوجد مسرح ، حتى يمدوه . وإنى لأذكر أنى قرأت ذات يوم شيئاً معناه : أن المسرح هو الذى يخلق الرواية المسرحية ، وأن الممثل هو الذى يوجد المؤلف . عبارة خبرتها

---

(1) مقال ظهر فى مجلة « المصور » أول يونيو ١٩٣٤ .

فى ذلك الحين فوجدتها تصدق فى كل زمان ومكان قامت فيهما نهضة تمثيلية . فعند الإغريق ولد التمثيل قبل أن يوجد التأليف التمثيلى ، وخرج هذا التمثيل من قلوب الآلهة ودرج فى أحضان الدين موسيقى وأغانى وأناشيد ، وقبل أن يظهر المؤلفون التمثيليون العظام لم يعرف عن التأليف فى اليونان إلا أنه كلام يلقيه الممثل من فوره عن طريق البديهة والارتجال . وفى الهند يوم قامت على نهر « الجانج » المقدس نهضة تمثيلية رائعة قبل ميلاد المسيح بقرن فيما أذكر أو قرنين إذ أوجد الدين أيضا هذا الفن هناك وجعله مظهراً من مظاهر الاحتفال بذكرى الآلهة وميلاد الملوك ، كان التأليف الارتجالى من أفواه الممثلين سابقا كذلك فيما أعتقد وممهداً لظهور شعراء الهند التمثيليين ، وفى أوروبا أيضا جرى الأمر على هذا النحو ، وهل ظهر شكسبير وسكارون وموليير إلا فى بيئة الممثلين : فوجود المسرح الزاهر يسبق دائما وجود المؤلف العظيم . ولو أن فى مصر مسرحاً ثابت الدعائم لانقلب أكثر الشعراء والأدباء كتابا مسرحيين . وهل شوقى كان يجهل القصة المسرحية . إنه عالجها فى سن الشباب . فلماذا انقطع عنها ، ولماذا واصل تأليفها فى آخر أيامه . إلا أن يكون ذلك لنسمة حياة هبت يومئذ على المسرح المصرى الناشئ . فما الأدباء إذن بملومين . ينبغى أن يشب الأديب فيجد المسرح قائما على أقدامه فاتحاً له ذراعيه. هكذا شب أشيل وسوفوكل ويوريبيد. فوجدوا « التياترون » الإغريقى . وشب

كاليداسا فوجد المسرح الهندى ، وشهب شكسبير فوجد المسرح الإنجليزى ، وشب موليير فى فرنسا وكالدرون ولوب فى أسبانيا فوجدوا الكوميديا الإيطالية زاهرة فى المدن والريف . ويشب الأديب المصرى فماذا يجد ؟ لا شيء من كل هذا . فإن المسرح لم يدخل بعد فى تقاليدنا و لم يكن له شأن بعد فى حياة العامة ولا فى معتقدات الشعب المصرى الحديث ، وإن كانت جذور التمثيل كفن بشرى ما نبتت إلا فى أرض مصر . ولعل الاستكشاف الأثرى يدعم هذا الزعم فى القريب . فإنى مؤمن كل الإيمان أن مصدر التمثيل عند الإغريق وعند الهنود إنما هو فى طقوس تلقين الموتى فى مصر وما كان يتبادل فيها من حوار يجرى بين الكاهن وبين شخص يمثل الميت . ولعلهم أيضاً كانوا يمثلون فى الأعياد الدينية يوم البعث والحساب والعقاب والميزان بكلام مرتجل أو موضوع و لم يكتفوا بتصوير هذه العقائد رسوماً على الحيطان . يشجعنى على هذا الزعم عبارة وردت على لسان هيرودوت أنه رأى المصريين فى الموالد يمثلون آلهتهم فى الساحات فى أشكال بعض الحيوانات الداجنة ويجمعون بينها وبين بعض فتيات يمثلن الأرض والخصب .

إذن ينبغى أن يوجد فى مصر الحاضرة المسرح والممثلون أولا .
وقد يسلم طه حين بهذا . لكنه قد يصيح قائلا : « فليكن ذلك حقاً . فلماذا لم يوجد فى مصر حتى الآن مسرح وممثلون خليقون أن يظهروا

المؤلفين العظام ؟ من المسئول عن هذا النقص غير الدولة ؟ » . عندئذ أجيب أن الدولة فى رأيى لا يمكن أن تسأل فى هذا . فالدولة لا تستطيع أن تخلق الفن . كما أن الدولة لا تستطيع أن تقتل الفن . لأن الفن شىء ينبت بنفسه ، لا يدرى أحد كيف نبت ، وما من قوة فى الأرض تستطيع أن تمنعه من الظهور ، ومع ذلك فهب أن فى مقدور الدولة أن تصنع شيئاً لخلق الفن . فما هو هذا الشىء على وجه التحقيق ؟ فليطلب طه حسن إلى الدولة شيئا بعينه ننظر فيه . وإذا شاء فليتمثلنى أنا الدولة .

نعم ، فأنا أرى أحيانا رأى من يقول بأن صلاح هذه الإنسانية لن يكون إلا بتسليم رجال الأدب لا رجال السياسة زمام الأمور . فهم أصحاب قلب قبل كل شىء . وهم بهذا أقدر على فهم الشقاء البشرى وأجدر بقيادة الإنسانية إلى عالم الحرية والإخاء والهناء . ولو أنى أخشى من جهة أخرى أن صاحب الأدب إذا انقلب صاحب دولة طرح منظار الأدب ونظر بمنظار الدولة . أو لم يبلغنا عن شاعر الألمان « جوته » أنه لما أصبح مستشارا للدولة تقدم إليه صديقه الموسيقى « بتهوفن » يلتمس الإعانة على رقة حاله . فأهمل المستشار ذلك الالتماس ، ونسى أنه شاعر له قلب خرجت منه « إيجمون » !

الدولة والفن

لقد قلت إن الدولة لا تستطيع أن تخلق الفن ولا أن تخنقه . لأن الفن ينبت فى ضمير الشعب . وأن نوع الشعب هو الذى يحدد أحيانا ويكيف نوع الفن . وإن اهتمام شعب من الشعوب بفن من الفنون هو الذى يرغم الملوك على الاحتفال به والمفكرين على الاتجاه إليه . وذكرت أن عناية الجمهور الإغريقى القديم بالمسرح ودخول المسرح فى عاداته الاجتماعية ، وحرص الملوك والفلاسفة والمثقفين على مشاهدة التمثيل فى أخطر وأقدس المناسبات قد جعل التمثيل والتأليف فى يد كبار الشعراء الخالدين .

كذلك فى فرنسا عندما دخل المسرح فى تقاليد القصور الملكية وفى حياة أرستقراطية الفكر والدم أصبحت ردهات المسارح ومقاصير دور التمثيل هى الأمكنة التى تتم فيها المقابلات الرسمية الخطيرة بين الملوك والعظماء والسفراء . وأصبحت خياطات باريس البارعات إنما يعشن على إخراج طريف ثياب السهرة للسيدات ، يختلن بها فى شرفات المسارح . ذلك اليوم الذى أصبح فيه للمسرح الفرنسى المكانة الاجتماعية التى كانت له ، وما تزال ، هو اليوم الذى ظهرت فيه النهضة الفرنسية المسرحية العظيمة . ولقد قال يوماً أحد أساتذة

السربون :

« إذا نظرنا إلى روايتين تمثلان فى بلاط لويس الرابع عشر ، إحداهما مذيلة بإمضاء « راسين » والأخرى بإمضاء « برادون » فإن الفرق بينهما على أهميته هو فى المحل الثانى ، فإن مناظر « فرساى » وجو المجتمع فى ذلك العصر وحركة « المراوح » فى أيدى المصغيات الجميلات واستحسان الذوق والكونت والمركيز ، كل هذا هو الذى حدد الشكل النهائى لأدب المسرح الفرنسى » .

فالجمهور هو الذى يوجد المؤلف والمسرح .

والجمهور المحترم هو الذى يوجد المؤلف المحترم والمسرح المحترم . وكل هؤلاء جميعاً القوة التى تدفع الملوك والقياصرة القابضين على زمام الشعوب إلى أن يمسكو أيضا بذلك الحبل الذى يهز مشاعر رعاياهم وأن يجعلوه دائما فى أيديهم .. وأن يشدوه عصباً ممدوداً يربط قلوب الجماهير بقلوبهم .

لقد كان نابليون شديد التحمس للمسرح ، يراقب إدارة « الأوبرا » بنفسه ويشرف على اختيار رواياتها حتى وهو خارج فرنسا . لا تشغله عن ذلك حروبه الكثيرة ولا تنقلاته ومغامراته . وفيما يلى بعض رسائل وجهها إلى وزرائه فى هذا الشأن وهى منقولة عن كتاب « نابليون وعالم المسرح » لهنرى لكونت .

(بولونيا ٢٣ يونيو ١٨٠٥)

إلى مسيو فوشيه .

أرجو منك أن تخبرنى ما هى قصة (دون جوان) التى يريدون تمثيلها على مسرح الأوبرا ؟ فلقد طلبوا إلى أن أعتمد نفقات إخراجها . أريد أن أعرف رأيك فى هذه الرواية من حيث فائدتها لروح الجمهور .

نابليون

(برلين ٢١ نوفمبر ١٨٠٦)

إلى مسيو كمباسيرس .

إذا كان الجيش يجهد على قدر ما يستطيع فى سبيل شرف الأمة فلا أخفى عنك أن رجال الأدب يصنعون كل شىء فى سبيل إلحاق العار بالأمة . لقد اطلعت البارحة على ذلك الشعر الردىء الذى ينشدونه على مسرح الأوبرا . بلغ مسيو دى لوسيه استنكارى لهذا الحال ، وإن مسيو دى لوسيه ووزير الداخلية كان فى مقدورهما تفادى ذلك لو أنهما عنيا بإعداد الرواية قبل التمثيل بثلاثة شهور . الكل يقول إنه ليس لدينا الآن أدب ، إن الذنب فى ذلك واقع على عاتق وزير الداخلية . إن الشعر لا يصنع فى لحظة بمجرد الطلب كما يصنع ثوب من الموسلين . لقد كان على وزير الداخلية أن يتأهب للأمر قبل العمل

بوقت كاف ، فإن لم يكن قد فعل شيئا بعد لهذا العام فكلفه أن يستعد منذ الساعة للعام المقبل .

نابليون

(فارسوفيا فى ١٦ يناير ١٨٠٧)

إلى مسيو شامبانى

مسيو شامبانى ، لقد قرأت بسرور كثير أناشيد الأوبرا . فبلغ المؤلف رضاى ولقد أمرت أن تقدم إليه هدية من أجل قصته « جوزيف » .

فأخطرنى بما تم فى ذلك ، على أى حال ينبغى أن يكافأ . واعلم أن خير وسيلة تمجدوننى بها دائما هى أن تقوموا بأعمال توحى بأسمى مشاعر البطولة إلى الأمة والشباب والجيش .

نابليون

ولقد صاح نابليون فى مجلس الوزراء يوماً :

« امضوا ، امضوا قدماً فى سبيل الاستكشاف . لا أريد أن يشعر فى عهدى رجل ذو موهبة أن فضله قد غمط . يا مسيو شامبانى ، إن الأدب فى حاجة إلى التشجيع . وأنت الوزير المنوط به ذلك . اقترح على وأشر بالوسائل التى تحدث هزة تبعث النشاط فى مختلف فروع

الأدب ، هذه الآداب الجميلة هي التي كانت فى كل زمان فخر الأمة وزينتها ، إنى اتوق مهما تكن الظروف أن أثيب وأكافئ قصة تمثيلية رائعة ! »

فالأمر إذن قد انجلى عن هذه النتيجة : الشعب يخلق الفن والدولة تكفل ازدهاره . الأرض تنبت والبستانى يتعهد بالرى . فإذا قلنا إن فن التمثيل وجد فى مصر والشرق العربى ولكن الدولة وقفت منه موقف اللاهى عنه غير المكترث له فإنها تكون قد تخلت عن واجب من واجباتها العظمى وأفلتت من يدها الزمام الذى تستطيع به أن تسير بالشعب إلى عالم السمو الروحى والخلقى .

خطرات فى الفن

الأمم تشعر .فى أطوار تاريخها كما يشعر الفرد فى أطوار حياته . ومظهر شعورها هو ما نسميه « الفن » . ويدلنا تاريخ الفن على أن شعور الأمم خاضع لعين الناموس الذى يخضع له الفرد : ناموس السن والزمن . فكما أن للشباب إحساسه المتجه غالباً إلى الطموح والأمل والتفاؤل بالحياة ، كذلك الأمم فى عهود شبابها يتجه فنها إلى « المثل الأعلى » .

* * *

ثم يولى الشباب فيغرب نجم « المثل الأعلى » ، وتمحو الحياة بواقعها رائع الأحلام ، وتحل القناعة محل الطموح . ويتجه الإحساس إلى الواقع ويكتفى بالكائن الموجود . فى هذا الطور ظهرت « المذاهب الواقعية » فى الفن . هذا الناموس يبدو أثره فى تاريخ كل إحساس إنسانى على الإطلاق : « المثل الأعلى » أولا . ثم « الواقع » . « المسيح » قبل « محمد » .

نعم . المسيح رمز المثل الأعلى للمشاعر الإنسانية . ومحمد رمز الواقع والحياة والمنطق البشرى . حتى الأديان تخضع لهذا القانون . إنى مخطئ إذ أقول « حتى الأديان » . أوليست الأديان قبل كل شىء

تعبيرا آخر عميقا عما فى نفس الإنسانية !

* * *

إذا اعتبرنا مصر الحديثة اليوم فى طور شباب ، له آمال وأحلام ، فأين الفن المصاحب لهذا الطور ، المعبر عما يختلج فيه من إحساس ؟ هل يجوز للفن أن يتخطى هذا الطور ؟ من لم تكن له أحلام زمن الشباب يمر بالحقيقة بعد ذلك ولا يفهم عنها شيئاً . ومن لم يكن له مثل أعلى أيام الصبا هو ناقص التكوين الذى لا رجاء منه فى الحياة . إنما « الواقع » لا يفهم إلا « بالخيال » . ولا حقيقة بلا حلم . وينبغى أن يكون هناك حلم كى تكون هناك حقيقة . ويجب أن نعرف المثل الأعلى أولا إذا أردنا أن نعرف الحياة .

* * *

لكن ... من أين ينبع حلمنا ومثلنا الأعلى ؟ من قلب أرضنا . لا شعور ولا تفكير إلا مصدرهما الأرض . لقد قلت ذات مرة : كما ينتسب الولد للفراش كذلك الفن للأرض . لقد قلت كذلك فى فصل عن منابع الفن المصرى[١] أن مصر هى « البعث » . وأن كل شعور مصر منذ فجر التواريخ قائم على هذه الكلمة : « البعث » . لماذا ؟ لأن أرض مصر التى لم يتغير جمالها على الزمن ، تلك التى ترى نيلها وجوها

---

(١) راجع كتاب « تحت شمس الفكر » .

وكل شيء فيها يسير على نظام لا ينحرف منذ الأزل ، قد غرست فى نفوس أهلها الإيمان بها . مصر لن تموت . ولن تموت فيها دجاجة أو بطة أو أوزة ... كل شيء يبعث ليستأنف على هذه الأرض الخصبة الخالدة حياته الوادعة الهادئة التى لن تزول . موت وبعث ... وبعث وموت ... هكذا دواليك مثل ساقية النيل ذات الجرات الحمراء ...

هلا تكون فى أعماقنا اليوم عقيدة كهذه العقيدة ، فنأمل لكل موت فى نفوسنا ببعث قريب ؟

* * *

« إيزيس » المرأة والإلهة هى التى بعثت زوجها « أوزيريس » بعد موته ، وأعادت إليه الحياة . تلك أسطورة مصر الخالدة .

و « شهر زاد » المرأة والإلهة (فى نظرى) هى التى بعثت زوجها « شهر يار » بعد موت نفسه ، وأعادت إلى « إنسانيته » الحياة .

الملك الوحشى الذى كانت تقدم إليه فى كل ليلة امرأة ليقتلها فى الصباح ، من حديث شهر زاد تعلم ، وفى قصصها تثقف ، وعادت له نفس .

شهر زاد هى استمرار شخصية إيزيس . لهذا كان شعورى دائما أن كتاب « ألف ليلة وليلة » هو فى جوهره مصرى عريق .

* * *

« بوذا » الرجل والإله خلا إلى نفسه أربعين يوما تحت الشجرة

المقدسة ، ليخرج للناس الحكمة ، فيريهم النور .

و « بيدبا » الرجل والإله (فى نظرى) خلا إلى نفسه زمنا ليخرج كتاب الحكمة لدبشليم الملك الوحشى « فيريه النور » .

* * *

فى مصر هى المرأة . وفى الهند هو الرجل . فى مصر البعث على يد المرأة .

* * *

تحت تأثير هذه الخواطر كتبت رواياتى « شهر زاد » و « أهل الكهف » و « الملهمة » أو « الخروج من الجنة » .

وتحت تأثير افتتانى بإيزيس ، رسمت أشخاص بطلاتى : « شهر زاد » و « بريسكا » و « عنان » . كل واحدة منهن ليست سوى « إيزيس » فى رداء جديد !

الجمال العارى

سألتنى إحدى الصحف عن رأيى فى « الجمال » المصرى بمناسبة الصيف . فترددت . لأن الصلة بين « الصيف » و « الجمال » تذكر فى الحال بالأجسام العارية من تماثيل الرخام الحية التى تخطر فوق الرمال كأنها عرائس البحر الخرافية ، التى تقول الأساطير إنها كانت تغرى بسحرها النوتية فيقتفون آثارها إلى حيث تعانقهم الأمواج وتجذبهم الهاوية !.

على أن الحديث عن الجمال فى ذاته يغرينى دائما وإن كنت ولله الحمد لست من صرعاه . وأقصد بالجمال هنا « الجمال الحى » . ذلك أن « الجمال الفنى » هو وحده الذى يستطيع أن يصرعنى . فلا بأس إذن من أن أتكلم بغير خوف ولا حذر .

تسألوننى عن « الجمال فى مصر » فاسمحوا لى أن أقول إنى لم أره . فالجمال الذى يعرض عاريا على الشواطئ للأعين العابرة لا يسمى فى عرفى جمال . إنى لا أستطيع أن أفصل الجمال الخارجى عن الجمال الداخلى . فالجمال عندى وحدة لا تتجزأ قوامها الجسم والروح معا ، كالضوء فى الكوكب والعطر فى الزهرة . وأظن هذا هو الرأى عند أكثر رجال الفن فإن المصورين والمثالين والشعراء عندما أرادوا أن

يخلدوا « جمال المرأة » فى لوحاتهم وأحجارهم وأشعارهم لم يلتفتوا إلى الجسم الظاهر وحده ولكنهم سجلوا الجمال الداخلى للمرأة أيضا . هذا ما يفسر لنا تزاحم المصورين الخالدين من أمثال « بيروجينى ورفاييل واندريا دلسارتو » على شخصية مريم البتول « المادونا » عندما أرادوا تسجيل جمال العذراء . كذلك فعل صانعو تماثيل إلهة الجمال : « فينوس » فقد حرص صانع تمثال « فينوس دى مديتشى » أن يظهر لا جمال الجسم وحده ، بل جمال الروح أيضا فى ذلك الخفر والحياء وروح الفضيلة المتجلية فى حركة اليد لذلك التمثال الخالد . كما عنى الفنان الذى صنع تمثال « فينوس دى ميلو » بإظهار جمالها الداخلى فى تلك الوقفة التى تدل على الترفع والجلال والنبل والسمو الروحى . كذلك الشعراء مثل « دانتى » و « بترارك » فى إشادتهما بالجمال الحق : جمال الفضيلة والطهر للمرأتين اللتين ألهمتاهما أنبل الاحساسات وأرفع المشاعر وهما : « بياتريس » و « لورادى نوفيس » . فالفضيلة كما ترى شرط أساسى عندى « لجمال » المرأة . وإنى لا أصدق مطلقا هذا الهراء الذى يتحدث به اليوم كثير من الحمقى عن صفات « الإغراء » فى المرأة واعتبارها من مزايا جمالها الداخلى . كلمة « الإغراء » و « السكس آبيل » و « اليومف » وكل هذا السخف ليس إلا مظهرا من مظاهر الانحطاط الصارخ فى مستوى الفن الحقيقى ودليلا من أدلة الانهيار المخجل للقوى الروحية فى عصرنا

الحاضر . وإذا استمر الحال زمنا آخر على نزع الجمال الروحى النبيل هكذا والإلقاء به فى إهمال مهين بعيداً عن جمال الجسد الرخامى البارد فقولوا على كل فن عظيم و كل ذوق سليم .

إنى واثق أنه لا يوجد فنان واحد حق يرى جمالا فى ذلك الصف الطويل من اللحم العارى الذى يعرض على الشواطىء أو على المسارح فى شكل سابحات أو راقصات . إن الجمال أيها الناس ليس مجرد لحم أو رخام . إنما هو شىء آخر داخل ذلك الإطار الأصم . هو شىء نورانى يضىء ذلك الهيكل الخارجى . إن الجسد العارى وحده جثة بلا روح ومعبد بغير إله .

أما الجانب الآخرى من السؤال وهو جمال المرأة فى مصر فلست أدرى ماذا أجيب عنه . فهو فضلا عن دقته ، مما لا ينبغى أن يؤخذ فيه رأيى . فأنا لست من رواد الشواطىء ولا المسارح ولا حتى المجتمعات البريئة التى تقع فيها الأعين على الوجوه الوضيئة . إنما أستطيع على كل حال أن أقول فيما يتعلق بى إن عينى لم تقع فى مصر على جمال كامل . فالمرأة التى تأنس فى صورتها شيئا من الملاحة تحسب أنها قد ظفرت بكل شىء فتتيه دلالا وتنسى أن جمال الصورة وحده لا يكفى . وأنه لا بد له من الشطر الآخر : جمال النفس . وأنها ما زالت ناقصة عليها أن تزين نفسها بالتثقيف وأن تحلى روحها بالفضائل . لقد كانت « مدام ريكامييه » أجمل نساء عصرها وأعمقهن معرفة وثقافة .

وكذلك كانت كثيرات من نساء صدر الإسلام ، لا يغرهن ولا يخدعهن الجمال الخارجى عن الجمال الداخلى .

فإين اليوم المصرية التى وهبها الله جمال الصورة فقرنت به جمال الروح والعقل والأخلاق ؟! إن أكثرهن دمى من الجبس مصبوغة ، وعرائس من الخشب مطلية . أشكال قد تسر الأنظار دقيقة أو دقيقتين ولكن العياذ بالله إذا حكم عليك بالجلوس إليهن ساعة أو ساعتين ، وماذا تنتظر أن تجد خلف هذه القشرة وهذا الطلاء ؟

أيتها النساء والفتيات اسمعن منى نصيحة خالصة لوجه الله : انظرن ساعة فى المرآة وساعتين فى الكتاب النافع الذى يجلى لكن كنوز نفوسكن وفضائلكن . اجعلى ساعة لمرآة الوجه وساعتين لمرآة النفس . إذا أردتن الجمال الذى يدوم .

إنى لواثق من النتيجة لو سمعت نساؤنا النصيحة : نتيجة كأنها من فعل السحر والسحرة . فإن الدمى المطلية ستضىء من الداخل بنور جميل ، والعرائس الخشبية ستتحرك فى حياة خصبة منتجة ناشرة حولها الخير والسعادة .. أما من آنست فى صورتها نقصاً فى الجمالفهى عادة تلك التى تتوفر على تثقيف نفسها وتحلية روحها بالفضائل لتعوض بجمالها الداخلى ما فقدته من الجمال الخارجى هذه المرأة أيضا تحسب أنها بهذا الجمال الداخلى وحده تستطيع أن تظفر بكل شىء . فتراها تهمل جسمها حتى يصبح منظرها يزهد الناس حتى فى الدنو

منها لاستكشاف كنوزها الخفية . إلى هذه أيضا أوجه النصيحة : لا تهملي جسمك بل تعهديه بالألعاب الرياضية وبكل ما يظهره فى أحسن هيئة . فإن فعلت ذلك استطاعت وضاءة نفسك أن تضفى عليه نورا يظهره جميلا وإن لم يكن بالجمال الموهوب .

ليس فى مصر جميلات بالمعنى الكامل الشامل لهذه الكلمة . لأن الجمال الخارجي منفصل عندنا عن الجمال الداخلي . ومن أعطت أحدهما لا تريد أن تكمله بالحصول على الآخر .

تلك مسألة فهم وإرادة . وهما خلتان ينبغى أيضا أن تتوافرا فى المرأة المصرية ...

الإلهام النفسى

يحدث أحيانا أن يفوه الإنسان بأشياء لا يدرك خطرها إلا فى المستقبل . وهذا ما حدث لى . لقد نشرت فيما يظهر أشياء منذ سنوات ثلاث لم ينبهنى إلى أهميتها إلا الهر هتلر منذ شهرين . فقد أذاع نداء دوى صداه فى أرجاء أوروبا يستنهض به شعوبها إلى ما سماه « الحروب الصليبية » ضد « الماركسية أو البلشفية » ثم عبأ الملايين من البشر للزحف على روسيا التى استقبلته هى الأخرى بملايين من البشر كانت تلك أول مرة فى نظر صحف العالم أطلقت فيها اسم « الحروب الصليبية » على هذه الملحمة الإنسانية الكبرى . هنا تذكرت أنى أنا توفيق الحكيم الكاتب المصرى كنت ولا فخر أول من أطلق هذا الاسم على هذه المعركة التى تنبأت بها قبل وقوعها بسنوات ثلاث . وهرعت إلى كتابى « عصفور من الشرق » الذى نشر عام ١٩٢٨ وفتحت صفحة ١٠٢ فى آخر الفصل الثانى فإذا به هذه الكلمات : « .... وإنى لأتنبأ لك منذ الآن بوقوع نوع من « الحروب الصليبية » بين « الماركسية » و « الفاشستية » تحشد فيها الدهماء ضد الدهماء وتتناثر فيها الجثث وتتطاير الأشلاء .... إلخ » .

عجباً من العجب ! لو كان هذا الكتاب مترجما إلى الألمانية لقلت إن هتلر اقتبس هذه العبارة على عادته فى اقتباس آراء الأدباء والمفكرين . ولكن الكتاب لم يترجم إلا إلى الفرنسية وفى الحق أنه ما كاد ينشر فى هذه اللغة حتى فطن بعض أذكياء النقاد إلى ما فيه من تنبؤات. أما أنا فكنت آخر من فطن إلى مواهبى كمنجم!! اليوم فقط أتأمل هذه الظاهرة بشيء من الاهتمام وأقول فى نفسى : أهى قوة ملاحظة ودقة استنتاج لما يحدث حولى من أحداث العالم أم هو بعد نظر سياسى وحسن استقراء لما وراء الآفاق . من المبالغة أن أزعم أن لدى هذه الصفات . إنى حقيقة أرى فى نفسى أحيانا قدرة فطرية على استخراج أشياء كثيرة من مجرد النظرة الواحدة واللمحة العابرة سواء كان ذلك فيما أقرأ فى الكتب والأخبار أو فيما ألحظ من مشاهد الحياة والأحداث . ولكنى أكثر ميلا إلى الاعتقاد فيما يسمونه الإلهام . نعم ... وإنى لأتذكر الآن حوادث كثيرة فى طفولتى كان يدهش لها من حولى . أذكر الآن منها حادثة أو حادثتين وكانت سنى لا تتجاوز السادسة فيما أظن : كنا يوما جلوسا وإذا ببرقية جاءت تنعى عماً لى كان اسمه « محمود » . برقية ما كاد يفضها الحاضرون ويقرأون نصها « محمود توفى اليوم » حتى بكوا وهاجوا وماجوا وقاموا إلى ثياب الحداد يرتدونها . فسألتهم ما الخبر فقالوا لى « عمك مات » فقلت « إنه لم يمت » فعنفونى فأصررت وصحت بهم « لم يمت . لم

يمت .. أنا أقول لكم إنه لم يمت وسترون » فعجبوا قليلا لى ولكنهم أخذوا قولى على أنه عبث أطفال وعادوا إلى بكائهم . وجاء العصر وإذا بالميت يحضر ومعه سلة فيها خوخ وأخرى فيها كعك . فنظروا إليه واجمين ونظر إليهم دهشا ورأى حدادهم فقال هامسا : (من الذى مات عندكم ؟) فأراد أحدهم أن يقول له (أنت) . ولكنى قاطعته عند ذاك بصيحة الظفر والانتصار (ألم أقل لكم إنه لم يمت) ؟ وانجلت حقيقة الأمر أخيرا عن غلط عامل التلغراف الذى استبدل كلمة (توجه) بكلمة (توفى) ومر الحادث بسلام ولكن الجميع اعتقدوا فىّ الولاية .

وحدث مرة أخرى أن كنت أطل من نافذة تشرف على الخط الحديدى فدخل قطار المحطة فقلت : فى هذا القطار جدتى قادمة من الإسكندرية . فسخر منى أهلى لأن جدتى قد طال عليها العهد دون أن تسافر أو تترك بلدها . وأن مجيئها ينبغى على الأقل أن تسبقه برقية. ولكن دهشة الجميع بلغت غايتها عندما رأوا عربة تقف بباب البيت بعد نصف ساعة من كلامى وإذا هى جدتى تدخل علينا بحقائبها .

وكثرت أمثال هذه الحوادث منى حتى أصبحت فى نظر المحيطين بى ولياً من أولياء الله . ذلك جانب من طفولتى كدت أنساه ويحسن بى أن أرجع إليه يوما لأدونه . فطفولتى مملوءة بالغرائب منذ ولدت . وحتى ساعة ولدت قيل إنى لم أبك مثل سائر الأطفال فحسبونى

نزلت ميتا وكان الوقت ليلا ، فنبذونى للاعتناء بالأم المريضة . فلما عادوا إلى وجدونى فى أتم صحة ساكتا صامتا أنظر فى عجب وسرور إلى نور المصباح . أترانى أحببت (النور) منذ النظرة الأولى ! ينبغى أن أنفذ إلى طبقات الحكمة العليا أو على الأقل أنتظر آخر أيام الشيخوخة حتى أكون خليقاً بالكتابة عن أسرار الطفولة !

هنالك إذن ما يدل على أنى خلقت لأكون (وليا) . ولكن الحياة (المودرن) وما فيها من أساليب التعليم العصرى والثقافة النفعية تعرف كل الأعمال وفيها متسع لكل الوظائف من المهندس والضابط والطبيب والمحامى وحتى السياسى والصحاف والممثل والحرامى ولكنها لا تتسع لوظيفة (ولى) . لم يعد (للولى) مكان فى مجتمعنا الحديث كما كان له فى المجتمع القديم . فماذا إذن كان يصبح مصيرى ؟!

هكذا انطفأت فى نفسى تلك الموهبة السماوية . وأسدلت بينى وبين الغيب الحجب . ثم اختار لى القدر حرفة لعلها أقرب الحرف إلى تلك الطبيعة الغريبة . هى حرفة القلم ، والله قد ﴿ .. علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم﴾، به على الأقل أستطيع أن أنفذ ببصيرتى أحيانا خلال حجب النفس البشرية . شكرا للقدر إذن على إنقاذه إياى من مهنة (الولى) فى هذا الزمان . إن الاضطلاع بها اليوم يحتاج إلى صفات عملية . والقدر يعلم أنى رجل غير عملى . فأنا لن أعرف

كيف أستغل مواهب السماء استغلالا عصريا . وما كان يخطر لى على بال أن أستخدم الولاية فى (التنجيم) فيصدر لى فى كل عام (تقويم) !

لقد خشى القدر على الموت جوعا إذا جعلنى (وليا) فى هذا المجتمع المادى . فدفعنى إلى القلم وقال لى ما دمت أعرف أنك لن تخرج (تقويم الحكيم) فاكتب على الأقل كتابا مثل (حمار الحكيم) وسأهمس من آن لآن بين سطورك البسيطة الأسلوب وبين كلماتك الواضحة كماء الغدير بأشياء بعيدة التفسير ، لن يراها غير القارىء العميق . بل لن تراها أنت نفسك فى كل الأحيان . والحق أنى لحظت أخيرا فى بعض كتبى أنى تنبأت دون أن أشعر بشىء من تصرفاتى فى المستقبل ، وأنى خططت بقلمى بغير أن أدرى خطوطا فى لوح قدرى . إن أكثر الكتاب يعيشون حياتهم أولا ثم يكتبونها بعد ذلك . أما أنا فأكتب أحيانا حياتى أولا ثم أعيشها بعد ذلك . ياله من شىء مخيف : أن يصدر الإنسان حكماً على نفسه وعلى حياته ومستقبل أيامه بالقلم الذى تعبث به أصابعه! اللهم ارحمنى من نفسى ومن قلمى !

على أنه قد يسألنى سائل فطن : إذا كنت لم أستطع أن أكون وليا ولا منجما فلماذا لا أكون دبلوماسيا ؟ إن هؤلاء الثلاثة يشتركون من غير شك فى عين الهبة : وهى النظرة البعيدة المرمى . هذا صحيح . إن الولى والمنجم والدبلوماسى من فصيلة واحدة والفرق بينهم هو أن

الولى لا يريد أن ينظر إلى غير السماء . والمنجم لا مانع لديه من أن ينظر أيضا إلى جيوب الناس ممن يبيعهم (بالقطاعى) بعد نظره ! أما الدبلوماسى فهو ينظر إلى السماء وإلى الجحيم وإلى الجيوب وإلى كل جهة يستطيع بعد نظره أن يريه فيها مطمعا من مطامعه الكبيرة . هنا أصرح بأن عندى ألف دليل على أنى لا أستطيع أيضا أن أكون هذا النوع الثالث لو سلمنا جدلا بزعمى أو وهمى أنى أملك أحيانا بعد النظر . ذلك أن نظرى لا يستطيع أن يتجه أبداً إلى الجحيم ولا إلى الجيوب وإلا لكان لى اليوم شأن وأى شأن فى عالم الجاه والمال والسلطان . إن نظرى أنا أيضا لا يريد أن يتجه إلى غير السماء . ولكن لا فى إيمان الولى الساذج الجميل الذى لا يسأل ولا يستطلع ولا يمارى بل إيمان تشوبه أحيانا علامة الاستفهام عن حقيقة (النور) . إنها ثقافتنا الحديثة قد سلبتنا أيضا صفاء الإيمان الفطرى . فهبطت بنا عن الولاية درجات بغير داع ولا مبرر ولا مقابل .

اللهم العن هذا العصر الذى لم يعد فيه مكان إلا لمن يستطيع أن يعيش فى الطين والتراب ...

فهرست الكتاب

الصفحة

رقم الإيداع ٢٠٠١ / ٨٨

الترقيم الدولى ٨ — ٠٣٧٦ — ١١ — ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه